

Twitter: @alqareah
15.1.2016
المجلس الأعلى للثقافة
الرحلة الهندية
إلى الجزيرة العربية
تأليف
مولانا رفيع الدين المراد آبادى
ترجمة وتعليق
سمير عبد الحميد إبراهيم
المشروع القومي للترجمة
487

المشروع القومى للترجمة

الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية

(١٢٠١ هـ الموافق ١٧٨٩ م)

تأليف رفيع الدين المراد آبادى

ترجمة : سمير عبد الحميد إبراهيم



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة
إشراف : **جابر عصفور**

- العدد : ٤٨٧
- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية
- رفيع الدين المراد آبادى
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

« مشاهدات حرمين شريفين أو سوانح حرمين شريفين »

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم المترجم

يحتل أدب الرحلة مكانة عالية في جميع لغات العالم ، فالرحلات من فنون الأدب ، فهي تقدم للقراء قصصا وحكايات ، وقد تتضمن أيضا أساطير وخرافات ، بالإضافة إلى مادة تندرج اليوم تحت مسمى التراث الشعبي ؛ ذلك لأن بعض الرحالة كانوا من الأدباء ؛ فغلب الطابع الأدبي على كتاباتهم ، وزخرت مادة رحلاتهم بالعناصر الأدبية .

وهذه الرحلة الهندية إلى الأراضي الحجازية كتبها صاحبها - وهو هندي - باللغة الفارسية منذ أكثر من قرنين من الزمان . والحقيقة أن الكتابة في شبه القارة الهندية عن الرحلة إلى الأماكن المقدسة بدأت باللغة الفارسية التي كانت لغة العلم والعلماء ، بينما كانت اللغة الأردية لغة عامة الشعب . وإذا كانت أول رحلة بالفارسية خارج شبه القارة الهندية كتبت سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥م بقلم ناصر خسرو ، وهي تلك الرحلة التي ترجمها أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب - رحمه الله - إلى اللغة العربية ، فإن أول رحلة كتبت داخل شبه القارة الهندية بالفارسية كانت بعنوان " جذب القلوب إلى ديار المحبوب " للشيخ عبد الحق محدث الدهلوي ، عن زيارته للأماكن المقدسة سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٩ م .

ورغم أن القرن الثامن عشر الميلادى / الثانى عشر الهجرى شهد تطور النثر الأدبى الأردى فى مراحله الأولى ، إلا أن الغلبة ظلت للكتابة بالفارسية ، ومن هنا كتب مولانا رفيع الدين المراد آبادى - وهو تلميذ شاه ولى الله الدهلوى - رحلته التى نقدم ترجمتها لقراء العربية ، وذلك بعنوان « مشاهدات حرمين شريفين أو سوانح حرمين شريفين » ، وهناك نسخة من الرحلة فى مدينة رام بور بالهند عنوانها " آداب الحرمين " كما ذكر نواب صديق حسن خان القنوجى هذه الرحلة باسم " حالات حرمين " .

وقد نقلها إلى الأردية مولانا نسيم أحمد فريدى أمروهى ، وجعل عنوانها "مشاهدات حرمين شريفين " . وعلى كل حال فقد رأى صاحب هذه السطور أن يكون عنوانها بالعربية " الرحلة الهندية إلى الأراضى الحجازية" ؛ ذلك لأنها أول رحلة كتبها مؤلف هندى سافر إلى الحرمين الشريفين بأسلوب مفصل .

مؤلف الرحلة هو مولانا رفيع الدين بن فريد الدين المراد آبادى ، حفيد نواب عظمة الله خان الفاروقى حاكم مراد آباد ، ولد فى " مراد آباد " بسنة ١١٣٤ هجرية ، وأخذ العلوم على يد العالم الهندى المعروف " شاه ولى الله الدهلوى " صاحب كتاب حجة الله البالغة ، كما تتلمذ أيضا على يد علماء هنود كبار .

ترك مولانا رفيع الدين المراد آبادى مؤلفات كثيرة منها : « سلوى الكئيب بذكر الحبيب » وهو فى السيرة النبوية ، و « شرح الأربعين »

(فى الحديث) ، و « تذكرة المشايخ » ، و « كتاب الأذكار » ، و « تذكرة الملوك » وغيرها ، بالإضافة إلى هـذه الرحلة المترجمة ، وقد اعتمد كاتب هذه السطور فى ترجمته هذه على بعض النسخ الفارسية مع الاستفادة من الترجمة الأردية التى قام بها مولانا نسيم أحمد فريدى أمروهى .

بدأ المؤلف رحلته من مسقط رأسه مراد آباد بسنة ١٢٠١ هجرية وعاد من رحلته سنة ١٢٠٣ هجرية ، بعد رحلة استغرقت - كما ذكر - سنتين وشهرين وأسبوعين .

وقد توفى مولانا رفيع الدين المراد آبادى فى الخامس عشر من ذى الحجة سنة ١٢٢٣ هجرية ، بعد عودته من الرحلة بعشرين سنة ، عن عمر يناهز التاسعة والثمانين ، ودفن فى مسقط رأسه (مراد آباد) .

دوّن المؤلف مشاهداته فى سفره البرى والبحرى من مسقط رأسه إلى أرض الحرمين مرورا بحضر موت واليمن ، كما دون ملاحظات مهمة ، مسهبة أحيانا، وموجزة أحيانا ، وحرص على التأريخ والتعريف بالبلدان ، وبقضايا فقهية وعلمية، كما استشهد فى كتاباته بآيات الذكر الحكيم ، وبالحديث النبوى ، وبأبيات عديدة من الشعر، ذكر أصحابها أحيانا ، وتغاضى عن ذكر أصحابها أحيانا أخرى . واعتمد المؤلف بالإضافة إلى المشاهدات العينية على ما سمعه من أخبار ، أو ما طالعه من رحلات سابقة ، أو كتبٍ كُتِبت فى موضوعات مختلفة تتعلق بموضوعه.

لقد وصف الطريق والرفيق ، ووصف المدن والقرى ، وكتب عن الأمور الاجتماعية التى تضمنت وصفه للبشر وفئات المجتمع وطبقاته ، كما ذكر العلماء ، والأدباء ، والمدارس ، وحلقات الدرس أينما ذهب وحل ، ليس هذا فقط بل كتب عن الأمور الاقتصادية فى تلك الحقبة من الزمان ذاكرا الأسواق، والعملات النقدية ، والبيع والشراء ، والكراء ، وحتى الصناعة وتطورها ..

ومن هنا كانت ترجمة هذه الرحلة - التى مضى عليها أكثر من قرنين من الزمان - إلى اللغة العربية ضرورة ملحة ؛ لأنها تضيف جديدا إلى نوعية الكتب المترجمة ضمن المشروع القومى للترجمة الذى يقوم عليه المجلس الأعلى للثقافة .

ولا أملك هنا إلا الشكر أقدمه للمجلس الأعلى للثقافة ممثلا فى شخص الأمين العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور ، وجميع القائمين على هذا المشروع القومى للترجمة الذى بدأ يؤتى ثماره ، فهو يخدم الفكر والثقافة ليس فى مصر فحسب بل فى العالم العربى كله .

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله وبعد ،

يقول رفيع الدين كاتب هذه السطور:

كنت أتمنى منذ عنفوان الشباب زيارة الحرمين الشريفين ، فقد غلبنى الشوق إلى رؤيتهما ، وكلما ظهرت فى الأفق بوادر تبشر بسفرى إلى الحرمين ، ظهرت هناك عوائق وعلائق حالت دون ذلك ؛ وهكذا ظل قلبى يتحرق شوقا لتحقيق هذه الأمنية ، وبعد مدة حان الوقت الذى قسمه الله تبارك وتعالى لى ؛ فزالت العوائق ؛ وانقطعت العلائق ؛ وانقشع الغمام ؛ وصفت السماء ، إلا أن الحزن خيم على صفحة القلب فقد انفتحت عين البصيرة ، واستيقظتُ من أحلام الغفلة وأنا أفكر فى أمورى ، فأدركت أن أوقاتى الغالية ضاعت فى لهو الدنيا ، وأمنياتها الخادعة ، وأننى أنوء بعبء جبل من الذنوب ، بعد أن اقتربت شمس حياتى من المغيب ، وكأنى بالشاعر يقول :

" ضاع نصف العمر هباء باطلا

والنصف الآخر ضاع فيما أخجل من ذكره ..

والدنيا ما هى إلا نفس واحد يتردد على درب الحياة

ففكر كيف أضعت عمرك فى هذه الحياة ."[١]

وكأنى بشاعر آخر يقول :

" لم تنل من الدنيا نصيبا

أيها الغافل عن محاسنك

لقد فقدت كل شىء

لم يعد لديك سوى الخسارة " .

بعد أن غلبت علىّ شقوتى ، وزاد همى وغمى ، وزادت حيرتى ، وسيطر علىَّ الشعور بالندم ؛ لم أجد أمامى من وسيلة سوى ترك الأحباب وهجرة الديار ، والسفر والاغتراب ، وعقدت العزم على السفر إلى روضة شفيع المذنبين ، الذى هو رحمة للعالمين : محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم المرسلين والنبيين ؛ لأنال من "مشفاه" [٢] الدواء النافع لكل ما أعانى من أمراض ، وما أقاسى من أحزان ، وحين شددت الرحال إذا بالشيطان يأتينى يوسوس لى ، ويعرض علىَّ ما قد يواجهنى من مشكلات فى سفرى ، ويصور لى ما قد أتعرض إليه من مصائب وأهوال ، لكن الله شملنى برعايته ؛ ووفقنى فى طرد هذه الوساوس ، والتغلب على شيطان نفسى ، وكلما غلبنى هاجس قلة المال والزاد ، ووعثاء السفر ومخاطره أقنعت نفسى بأن من يعلق قلبه بالأسباب وهو يقصد بيت الله ، ويشد الرحال إلى مسجد رسول الله – حيث روضة

حبيب الله المرسل رحمة للعالمين - إنما هو إنسان فقد بصيرته وما أطيب قول الشاعر العربى :

فإن الزاد أقبح كل شيء   إذا كان الوفود على الكريم

وكلما قيل لى : كيف تقدم على هذا السفر الطويل الشاق مع ضعفك وتقدم السن بك ؟! قلت : الحمد لله .. لا خوف ولا اضطراب ، فقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (النساء : ١٠٠) .

وعلى كل حال تذكرت قول الشاعر :

" قد يضطر المرء أن يلقى بالتراب على سطح الماء "

وكنت كلما ركبنى شيطان نفسى ، يبث فى قلبى الرعب ، ويخوفنى من مصائب السفر وأهواله ، أنتفض على الفور قائلا : لقد شربت دماء الكبد وأنا أعانى من ضياع العمر فى المعاصى والشهوات ، وشربت كئوس الندم بعد أن تحملت الهموم والأحزان ، فلا جرم أن تكون الأهوال والمصائب التى سأعانيها فى رحلتى القادمة كفارة لذنوبى السابقة ، وقد جاء فى الحديث الشريف " حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات " .

وتذكرت قول الشاعر :

" إن أردت أن تطوف بالكعبة

فانطلق إليها واعبر الصحارى والوديان

لا تحزن إن أصابك أذى من الشوك

فأنت مسافر إلى بيت الرحمن ".

وكلما وسوست لى نفسى ، تطلب منى التأنى والتمهل ؛ أجبتها بقول الشاعر :

" كم مرة أخرت عمل اليوم للغد

لا عذر لى بعد اليوم

حتى أقوم بتأخير عملى إلى الغد .. "

"أشتاق لأن أضع نعل بسيد العالم فوق رأسى

أو أضع رأسى تحت قدمه .. أو أتخيل حدوث هذا ..

لا أطمع فى جنة المأوى

كل ما أبغيه هو الجلوس على عتبة بابه

فهذه هى الجنة التى أطمع فيها " .

الحمد الله ، ثم الحمد لله ، الكريم ، الخالق ، الذى أعاننى على هواجس نفسى ووساوسها ، ونصرنى على الشيطان ومكره ، ووفقنى فى الرحلة إلى بيته العتيق ، وإلى زيارة مسجد حبيبه ، والصلاة فى روضة رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا أردت أن أسجل ذكريات رحلتى هذه ، وما أشاهده فى سفرى هذا من أماكن وبلاد ، وطرق ومنازل سفر ، سواء كان ذلك فى

البر أو البحر ، وأن أصف الأماكن التي أزورها في الأراضي المقدسة ، وكذا المشاهد المباركة ، وأذكر من أشرف بلقائهم من العلماء والأخيار أثناء رحلتي ، وأنقل ما أسمعه من الثقاة، وما أقرأه من الكتب : من العجائب ، والفوائد ، والحكايات ؛ حتى تبقى هذه الرحلة للأصدقاء ذكرى من العبد الفقير ، ومنفعة باقية للقراء على ما فيها من نذر يسير ؛ وحتى تكون سببا في بث الشوق في قلوبهم لزيارة الحرمين الشريفين زادهما الله شرفا وتعظيما ؛ وحتى تذكرني هذه الصفحات بما كنت عليه من حال في رحلتي للحرمين ، وما عانيت من ألم وحزن الفراق وقت رحيلي عنهما عائدا إلى وطني .

وأخيراً أتضرع إلى الله الوهاب الكريم أن يوفقني لأكون من مجاوري الحرم النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام إلى أن يقبض الله روحي ، وإن كان قد كتب لي أن أعود إلى وطني هذه المرة ، فأدعوه أن يوفقني للعودة إلى الحرمين الشريفين مرة أخرى ، وأن أسعد بمجاورة الحرم النبوي ، إنه على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السفر برًا

بدأت رحلتى إلى الحرمين الشريفين من مسقط رأسى " مراد آباد "- عمّرها الله وحفظ أهلها من الآفات والفساد - صباح يوم السبت الموافق الثامن عشر من محرم الحرام سنة ١٠٢١ هجرية ، وقد أرخت لهذا السفر بحساب الجمّل بعبارة " سفرنا خير " [٢] ، خرجت معتمدا على الله ، حاملا زاد التوكل ، ماضيا على راحلة العزيمة ، مرتديا حلة التوفيق حتى وصلت إلى " سنبهل "، وبعد أن طويت سبعة منازل قضيت ليلتى فى " لشكر بتيل سيندها " القريبة من " بندرابن "، وفى الصباح رحلت عنها ، وبعد منزلين وصلت إلى " ديك "- بدال هندية - التى تقع على مسافة ثمانية أكواس من " بهرت بور" التاريخية ، فشاهدت مبانى " سورج مل جات "- بتاء هندية - وهى نماذج لمبانى إرم وعاد ، وقد سبق لى أيضا مشاهدة هذه المدينة فى عهد حكومة " سورج مل " حين كانت عامرة بالسكان ومزدهرة بمبانيها التى كانت تؤسس آنذاك ، لكنى أراها الآن مدينة خربة ، ومبانيها عبرة لأولى الأبصار ، وهى مصداق قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص : ٥٨) .

كما أنها تذكرنى بقول الشاعر :

"ينسج العنكبوت بيته على طاق " كسرى "

بينما البوم يسكن قلعة "أفراسياب".

وتذكرنى بقول الشاعر :

"لا تمعن النظر فى هذه الأبنية ،

فالبيوت منخفضة مبانيها والقصور ".

لقد رأيت هذا المكان ثلاث مرات فى ثلاث حالات متباينة : الأولى قبل ثلاث سنوات ، والثانية فى عهد نجف خان ، والثالثة فى هذه السنة .

وفى يوم الجمعة الثانى من شهر صفر ١٢٠١هـ وصلت إلى " بوندى " الجديدة بعد عبور ستة منازل من " ديك " - بدال هندية - عن طريق " بهوسادر " ، وكان "راجه مادهو سنكه كتشواهه" قد أسس " بوندى الجديدة " بجوار المدينة القديمة المعروفة بالاسم نفسه ، وتحيط بها الهضاب الوعرة من الجهات الأربع ، وهكذا لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق ممرات محكمة ، أغلقت ببوابات متينة ، وتخرج ينابيع الماء العذبة من محيط الهضاب والجبال المحيطة بالمدينة ، وتجرى مياهها إلى داخل المدينة ، وتبعد قلعة " تهمبور " مسافة ميلين أو ثلاثة عن المدينة ، وتعد من قلاع الهند المشهورة والمنيعة .

فى العاشر من شهر صفر عبرت نهر (تشنبل) فوصلت فى الثالث عشر منه إلى " كوته " - بتاء هندية - الواقعة على مسافة أربعة

منازل ، وهى عاصمة "إمارة هاروتى " (براء هندية) وهى من أعمال " مقاطعة أجمير " ، وتقع على جبل يقع على شاطئ نهر " تشنبل " ، وهضاب الجبل سوداء اللون ، ومدينة "كوته" - بتاء هندية - هى فى الجملة تفوق غيرها من المدن المجاورة فى الجمال والحسن ، وهى خاضعة لحكام غير مسلمين ، كما أن المسلمين هنا لا قوة لهم ولا حيلة ، فالمسلمون القدماء الذين سكنوا تلك المدينة لم يكن لهم نصيب من الإسلام إلا الاسم ، وقد حدثنى أحد الثقاة : إن بالمدينة معبدا للأصنام ، يذهب إليه الناس للعبادة فى يوم معين من كل سنة ؛ فيطلبون من الأصنام قضاء حاجاتهم ، وقد ذهب إلى هذا المعبد يوما قاضى هذه المدينة المسلم لتقديم القرابين للأصنام ، والعياذ بالله !

ويجرى نهر " تشنبل " أسفل المدينة بين الهضاب والجبال ، ومن دونه نهر آخر يجرى عند أطراف المدينة ، وعلى مسافة ميل منها يوجد ضريح مشهور باسم "ادهر سلا " ، حيث توجد هضبة معلقة مثل مظلة على جانب النهر ، تلتصق بها قطعة أخرى من هضبة أخرى ، ويبلغ طول القطعة المعلقة ما بين ثلاثين أو أربعين ذراعًا ، وعرضها تسعة أو عشرة أذرع .

تبعد " كوته " - بتاء هندية - عن " مراد آباد " مسافة ٤٣٢ كوس (أى : حوالى ٥٠٦ كيلومترا) ، وبينهما تسعة أو عشرة منازل ، والطريق التى سلكناها أقصر من طريق " آكرا " (بكاف فارسية) ؛ لأنها يختصر السفر بين " كوته " و "مراد آباد " يومين كاملين .

غادرت "كوته " يوم السبت السابع عشر من شهر صفر ، وكان المنزل الثانى عند جبل " مكندره " وهو سلسلة من الهضاب المتوازية على مسافة يومين من "كوته " ، وفى اليوم الخامس والعشرين وصلت إلى " أجّين " بعد أن قطعت تسعة منازل ، و " أجيّن " هى عاصمة مالوة ، وهى مدينة قديمة ، كانت مقر عرش "راجا بكرما جيبت " المشهور بكرمه وجوده ، وبالشجاعة والبسالة ، ويبدأ التاريخ " البكرمى" الذى يؤرخ به الهندوس من عهد هذا الملك ، وقد مضى على عهده ١٨٤٣ عاما شمسيا [٤] ، والمدينة الآن تحت حكم أمراء المراهتة ، وهى مزدحمة بالسكان ، ومكتظة بالمبانى والبيوت ، وعماراتها ترتفع لثلاثة أو أربعة طوابق ، ويوجد بها مدفن " مولانا مغيث الدين" ؛ وهو من مريدى سلطان المشايخ "حضرة نظام الدين أوليا الدهلوى" رحمهما الله ، ويقع هذا المدفن على شاطئ النهر ، والمكان حوله نظيف وجميل ، يأتى إليه الناس لقراءة الفاتحة على قبر الشيخ .

أقمت فى مدينة " أجيّن " ثلاثة أيام ، ارتحلت بعدها متجها إلى " أندور" فدخلتها يوم الجمعة غرة ربيع الأول ، وتقع " أندور " على بعد منزلين من " أجيّن" وبينهما مسافة ٣٤ كيلومترا .

و " أندور " مدينة كبيرة ، وهى سوق ضخمة ، تصل إليها البضائع والأمتعة من ميناء " سورت" وغيره من الموانئ الأخرى ، والطريق إلى سورت تمر بمدينة "برهان بور " محط القوافل على بعد سبعة أيام من " أندور " ، بينما المسافة من برهان بور إلى "سورت" تستغرق خمسة عشر يوما ، وهناك طريق أخرى يستخدمه عادة التجار ، وهو يبعد عن

مدينة " بهروج " أجمل موانئ الكجرات " (بكاف فارسية) ، ويجرى بها نهر " نربدا " ليصب فى البحر ، بمسافة ٣٢٤ كيلو مترا ، بينما المسافة من " بهروج " إلى سورت تبلغ حوالى ١٨ كيلومترا ، والسفر على هذه الطريق أكثر أمنا وأمانا ، لكن له سلبيات أيضا فهو يستغرق وقتا طويلا نظرا لوعورته وللهضاب التى تتخلله ، ويصعب على غير التجار السفر على هذا الطريق ، ويمكن لمن يريد استخدامه فى سفره أن يسافر مع قوافل التجار ليس إلا ؛ لما لهؤلاء التجار من معرفة وثيقة وعلاقة حميمة بأصحاب الأراضى والمزارع التى يمر عبرها هذه الطريق ، التى يقع نصفها فى ولاية " مالوه " والنصف الآخر فى ولاية " الكجرات " (بكاف فارسية) .

وقد اخترت السفر بالطريق الثانية بعد أن شرح لى أهل " أندور " التفاصيل التى أوردتها من قبل .

وفى يوم الإثنين الثالث من ربيع الأول اخترنا طريق " بهروج " (بجيم فارسية) - ويقال لها أيضا " بهرائج "(براء هندية وجيم فارسية) - ووصلنا إلى " راج كره" - براء هندية - بعد طى سبعة منازل ، وهى على بعد ٨١ كيلومترا تقريبا ، وهى تبعد عن " ماندو " - التى ظلت لمدة طويلة عاصمة سلاطين الدولة الغورية ؛ الذين ذكرهم صاحب كتاب " تاريخ فرشته " - مسافة أربعة عشر كيلو مترا ، وتلك بيوتهم خربة ، لم يبق منها إلا القليل الآهل بالسكان خارج نطاق المدينة . إن فى آثار أولئك السلاطين وأبنيتهم الشاهقة لعبرة لأولى الألباب ، وصدق الشاعر إذ يقول :

" فوق جدران القصر الذى كان يناطح السحاب

ويؤمه الملوك والأحباب

رأيت حمامة برية ترفرف منشدة كو كو كو كو

وينبع نهر " تشنبل " من هضاب " مانو " التى تبعد عن " دهار " المدينة المعروفة مسافة بضعة كيلو مترات .

أقمنا فى " راج كده " يومين ثم غادرناها يوم السادس عشر من ربيع الأول ، قاطعين مسافة (٥٠ كوسا) ١٣٥ كيلو مترا من الهضاب الوعرة المقفرة والغابات الموحشة التى ذكرتنى بقول الشاعر :

"آه من طريق مملوء بالخطر

يمضى فيه الناس

لكن لا أثر فيه لأنس أو جنى !"

كنا نشاهد أحيانا أكواخا بنيت من البوص ، سكانها وإن كانوا على صورة الإنس ، إلا أنهم كانوا يسلكون مسلك الحيوانات ، وإن كانوا يتفاهمون فيما بينهم، لم نكن نفهم لغتهم ، وقد شاهدنا فى الجبال بعض المعادن مثل الحديد ،كما شاهدنا أحجارا كريمة ، وجواهر ثمينة ؛ فسبحان الله .

وفى يوم السبت السابع من ربيع الثانى وصلنا إلى " ديوى " التى تبعد عن " بهروج" مسافة ٨١ كيلو مترا ، وغادرناها فى اليوم التاسع ، وبعد يوم نزلنا " بهروب " ، وفى الثانى عشر من ربيع الثانى عبرنا نهر

" نربدا " ووصلنا إلى مدينة " اكليسر " ، حيث يوجد مزار الشيخ " سيد حليم " رحمه الله ، وهو معاصر للإمبراطور المغولي "جهانكير "- بكاف فارسية - وقد عرف بأنه صاحب كرامات متواترة ، وخوارق وعادات مستفيضة ، فأقمنا فيها ، ثم غادرناها عابرين نهر " تابتى " وكان ذلك ليلة النصف من ربيع الثانى ، تلك الليلة التى قضيناها على مشارف مدينة "سورت " ، وكان من حسن الاتفاق أن نزلنا فى الخامس عشر من ربيع الثانى بمدرسة " خواجه ديوانه "- رحمه الله - الواقعة وسط مدينة " سورت "، وخواجه ديوانه هو الخليفة الثالث لخواجه عبيد الله الأحرار رحمه الله، قدم إلى " سورت " من " توران " ، فانتفع بفيضه الظاهرى والباطنى العالم كله ، وتوفى رحمه الله سنة ١٠١٦ هجرية ، وأنوار فيضه ظاهرة حتى الآن متمثلة فى مزاره ومدرسته ومسجده ، ولا تزال مدرسته منزل كل من يقصد الحرمين الشريفين .

مدينة "سورت" باب مكة

لم يكن فى المكان الذى تقع فيه مدينة سورت حاليا بيوت أو عمارات قبل قدوم خواجه ديوانه ، ولم يكن فيه من يقيم عليه أو يسكن على أرضه ، فقد كان خواجه ديوانه هو أول من اختار المقام فى هذا المكان ، بعد أن اصطفاه الله بالولاية ، ومنذ ذلك اليوم بدأ الناس يتوافدون على المكان ، يستوطنونه ، ويقيمون فيه بيوتهم ؛ حتى صار المكان مدينة عامرة ، وصلت من الرقى والازدهار حدا كبيرا ، وكان

الميناء البحرى قبل ظهور مدينة " سورت " فى مدينة " رانديير " (٥) ؛ وهى مدينة قديمة تقع على الشط المقابل لنهر " تابتى " الذى يجرى بينها وبين "سورت " .

ويذكر أن أحد التابعين دفن فى مقبرة " رانديير " ، وكذلك دفن فيها كثير من الصالحين رحمهم الله ، وقبر التابعى غير معروف الآن ، وقد بُنى مسجد مدينة "رانديير " قبل تسعمائة سنة (٦) ، والمدينة الآن شبه خربة ، لا يوجد فيها إلا قليل من المبانى المتهدمة ، يسكنها عدد قليل من البشر.

ومدينة "سورت" هى - بكل تأكيد - مدينة جميلة تعج بالسكان ، وفيها أغلب بضائع الهند ، والصين ، وأوربا ، والبلاد العربية ، وبلاد فارس ، وفيها من الآثار الإسلامية ما لا تراه فى سائر أنحاء الهند ، كما أن ما بها من مساجد تشهد على عزة الإسلام ، لا يمكن أن يوجد له مثيل فى ذلك الزمان فى عموم الهند ، ويطلق على " سورت " أيضا اسم " باب مكة " .

الشيخ خير الدين المحدث السورتى :

التقيت فى " سورت " بالمحدث الشيخ خير الدين سلمه الله تعالى وأطال فى عمره ، والشيخ خير الدين السورتى يجمع بين علم الظاهر والباطن ، وقد حضرت له " حلقة درس الحديث " ؛ فتعلمت منه أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فالشيخ يمتد نسبه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وحياته مفخرة لأهل هذا العصر ، وقد سافر إلى

الحرمين مرتين ، ثم عاد وعكف على تدريس الحديث النبوى نحو نصف قرن من الزمان ، فتخرج فى مدرسته فى علوم الشريعة والطريقة كثيرون ، وهو الآن ملاذ لكل من يقصد الحرمين الشريفين ، وقد وهبه الله عزة وكرامة ، فنال احترام الحكام ، وكانوا يلجئون إليه ، ويستشيرونه فى كثير من الأمور ، ويراسلونه ، ومن بينهم شريف مكة ، وسلاطين الدكن ، ومع هذا كان الشيخ متواضعا تواضعا جما ، وكان يقوم بنفسه بخدمة ضيوفه وزواره ؛ فيحضر لهم الطعام بنفسه ، كما كان يسعى لقضاء حوائج المعوزين والمحتاجين مهما كلفه ذلك من تعب أو مشقة .

واقترب موسم إقلاع سفن الحجاج ، وشوقى لتحصيل العلوم على يد الشيخ المحدث خير الدين ملتهب ؛ فانتهزت فرصة وجودى عنده ؛ وقرأت عليه بسرعة بعض أجزاء البخارى وبقية الصحاح ؛ وحصلت منه على الإجازة .

وعندما اقترب وقت ركوب السفينة ، أردت أن أتحدث مع الشيخ فى أمور خاصة ؛ فذهبت يوما إلى حلقة الدرس بعد صلاة الظهر ، إلا أن حلقات الدرس استمرت إلى صلاة العشاء ، فكان الشيخ يخصنى بحديثه بين حين وآخر ، ومع هذا لم تسنح لى الفرصة لأسرّ له بما فى ضميرى ، إلى أن قام من مجلسه ، وهو يترنم بهذا الشعر :

"تسجد السماء للأرض لأن فيها رجلين

جلسا معا لحظات فى محبة الله" .

فترك هذا المعنى فى قلبى أثرًا عجيبًا .

وبعد ذهاب الجميع ، وبعد صلاة الشيخ اتجهت إليه وأخبرته بما كان فى ضميرى ؛ فأثنى على ما قلته قائلا : ما شاء الله ، ووافقنى على كل ما أخبرته به ، ثم نزع عمامته المباركة ، ووضعها على رأسى ، وقرأ على أسماعى هذا البيت :

" امض فى طريق الأطهار

ولا تمش وراءهم ، ففرعون غرق

بينما كان موسى أمامه ".

ثم أنشد هذا البيت :

"لا تُنال الحرية بالكتابة والخطابة ،

انظر إلى الببغاء لا يزال أسيرا فى القفص!"

فى الأيام التالية التى مكثت فيها فى " أجيّن " أخبرنى صديق بأمر عجيب ، وهو ينصحنى قائلاً :

– أنت ذاهب لحج بيت الله الحرام ، فلا بد أن تذهب إلى المدينة المنورة وتسعد بزيارتها !!

فتساءلت :

هل من المعقول أن يتحمل إنسان كان من كان هذه المشقات والمتاعب ثم يعود إلى دياره دون زيارة المدينة المنورة ؟!

فقال لى هذا الصديق :

- هناك كثيرون أدوا فريضة الحج ثم عادوا إلى ديارهم دون زيارة المدينة المنورة .

ذكرت هذه الواقعة للشيخ خير الدين ؛ فأخبرنى بقصة شبيهة بما قلته له وأضاف على ذلك بقوله :

- هناك فى مكة أشخاص معمرون ، لم يؤدوا بعد فريضة الحج ، فقد شغلتهم أمور الدنيا عن أداء الفريضة ، وإنما التوفيق من عند الله العزيز الحكيم .

وبعد وصولى مكة المكرمة - زادها الله شرفًا - رأيت بنفسى رجلاً كان معنا فى السفينة ، قدِّم مكة المكرمة ، ولم يكن بينه وبين الحج سوى شهر ونصف ، لكنه أقام فى مكة مدة يومين ، لم يصبر بعدهما ، وعاد إلى جدة ، وحين لامه البعض على فعله هذا ؛ لم يعرهم انتباها وقال :

- إنى رأيت مكة ، وطفت بالكعبة ، فماذا بقى على هنا أن أفعله .

وكانت هناك سفن تبحر عائدة إلى " سورت " ، فركب إحداها وعاد من حيث جاء !!

وللشيخ خير الدين المحدث السورتى ولدان : أكبرهما مولوى محمد صالح ويعرف بقاضى ميان ، جمع بين مكارم الشيم ومحاسن الإخلاص ، وهو خلف صدق لأبيه ، درس العلوم الإسلامية وتبحر فيها ، وكذلك نال الفنون الأخرى ، وقد صنع هذا العام سفينة أطلق عليها اسم

" سفينة الرسول " سافر بها هذا العام لأداء فريضة الحج ، وكان من فرط محبة الشيخ خير الدين وعطفه على ، ومن محبة مولوى محمد صالح واهتمامه بى أن أركبانى هذه السفينة فى الذهاب وفى الإياب ؛ وهكذا رافقت مولوى محمد صالح منذ اليوم الأول لسفرى حتى آخر يوم فيه ، فكانت مظاهر إخلاصه لى واهتمامه بى تزداد يوما بعد يوم .

والولد الثانى للشيخ خير الدين هو نظام الدين ، وهو الآن فى مرحلة الدراسة وتحصيل العلوم ، وهو شبيه بأخيه الأكبر فيما يتصف به من صفات حميدة وأخلاق مجيدة .

وللشيخ خير الدين المحدث مؤلفات ورسائل فى آداب الطريقة ، وتربية السالكين ، وفى الأذكار والأوراد.

مولوى ولى الله :

كان مولوى ولى الله - أصلا - من أحمد آباد (الكجرات) (بكاف فارسية) ، ووالده هو مولانا مولوى غلام محمد ، عالم متبحر فى جميع العلوم ، وتلميذ مقرب من مولانا نظام الدين اللكهنوى (الفرنك محلى - بكاف فارسية) ، وكان وحيد عصره فى فن القراءة ، وقد نال التربية الروحية على يد العارف الشيخ عبد الرازق البانسوى (قدس سره) ، وقد أقام فى مراد آباد أياما ، ثم انتقل إلى " برهان بور" حيث فضل الإقامة فيها ، وقد استفاد من علومه الظاهرة والباطنة

كثيرون ، ولم يترك مهنته القديمة التى كان يكسب منها قوته وقوت أولاده ، وهى تجارة القماش وحياكة الملابس ، رغم أنه كان ملاذا لكثير من الناس ، ورغم شهرته وكماله فى علوم الظاهر والباطن .

وقد سافر مولوى ولى الله – رحمه الله – إلى الحرمين الشريفين مرتين ، وأخذ الحديث وسنده عن الشيخ أبى الحسن فى المدينة المنورة ، ثم قدم إلى " سورت " فأقام فيها ، طاويا قدم همته فى ذيل قناعته ، مشتغلا بتدريس طلبة العلم ، وقد حكى لى حكايات عجيبة :

كان فى " بتنه" رجل يدعى محمد واسع ، اشتهر بالصلاح والكمال كان يكسب رزقه من عمله فى حياكة الملابس ، وكان من عادته إذا ما سمع صوت المؤذن ينادى للصلاة يترك عمله ، ويذهب لأداء الصلاة فى المسجد ، وذات يوم ، وبينما كان منهمكا فى عمله كعادته ، ولم يبق فى ماكينة الخياطة غير خيط واحد إذا بالمؤذن يرفع صوته ينادى للصلاة ؛ فحدث نفسه قائلا :

– لأتم هذا الخيط ..

وأتم عمله ، وحين وصل المسجد ، وأدلى بدلوه فى البئر يريد أن يأخذ ماء ليتوضأ ، إذا بدلوه يخرج ، وفيه ذهب خالص بدلا من الماء ؛ فاقشعر جسده ، وأشفق على نفسه ، فالله يعاتبه على تأخره فى إجابة نداء الصلاة ، فعجل له الدنيا وزخرفها ، فقد تأخر عن السعى إلى ذكر الله ، طلبا فى الدنيا .. فاستغفر ربه وأناب إليه قائلا :

– اللهم أنت ربى ، إن ما رزقتنى من رزق من عملى فى الحياكة فيه الكفاية وزيادة ، ولا أطمع فى غير ذلك .. يا إلهى ! أعدك

ألا أتأخر عن صلاة بعد اليوم .

ثم أدلى دلوه مرة أخرى فخرج بالماء فتوضأ ..

ومن تلك الحكايات العجيبة ، حكاية الشيخ على المتقى ، فقد كان رجلا يحتاط كثيرا فى المأكل والمشرب ، وكان شديد الورع تقيا فى أمر طعامه وشرابه ؛ فلم يكن يأكل إلا من عمل يده ، وقد سافر ذات يوم للسياحة فى الكجرات - بكاف فارسية - حيث يعيش الشيخ وجيه الدين - وهو من كبار العلماء الصالحين الذين اشتهروا بالتقوى والورع - فذهب للقائه ، فوجده يأكل " الكهجرى " - بجيم فارسية أى الكشرى - فدعاه للطعام ، فأظهر نوعا من التردد ، فقال الشيخ وجيه الدين :

- لا يقل كشرى وجيه الدين عن رغيفكم الجاف.

عندئذ اشترك الشيخ على المتقى فى الأكل ؛ فازداد باطنه ببركة هذا الطعام نورا على نور ، وبعد أن تناول قليلا من الطعام قال له الشيخ وجيه الدين مازحا :

- يا سيد ! ارفع يديك .. ويكفيك ما أكلت !!

ومن الحكايات الأخرى أنه حين فتح الإمبراطور المغولى " أكبر " [٧] ولاية الكجرات قدم إلى " بتنه " للقاء الشيخ " محمد طاهر " رحمة الله عليه ، وكان مريدا للشيخ على المتقى رحمه الله ، كما كان عالمًا كبيرًا من علماء الشريعة والطريقة ، ومؤلفًا لمجمع البحار وغيره من الكتب ، وحين طلب منه الإمبراطور أن يعرض حاجته ، قال :

– لى أمنية واحدة : وهى أنه لو جاء أحد أبنائى إلى بلاطكم أو بلاط أحد أبنائكم فانهروه ، ولا تعطوه منصبا فى البلاط ، ولا تفسحوا له مكانا ..

ثم سكت برهة وقال :

– طلبى هذا لا يجدى نفعا .. فسوف يذهب بعض أبنائى إلى بلاطكم ، فتكرمونه وتعينونه فى منصب ...

وصدق ما تنبأ به الشيخ فقد ذهب – أخيرا – أحد أحفاده إلى بلاط الإمبراطور " أونك زيب " (٨) – بكاف فارسية – رحمه الله ؛ فولاه فى منصب كبير ، ولقبه بشيخ الإسلام ونال من الجاه الكثير .

ومن الحكايات – أيضا – ما ذكر لى المولوى عن فضائل الشيخ محمد السمان المدنى عليه الرحمة ، وكان قادرى الطريقة ، نال شرف تدريس طلاب العلم فى المدينة المنورة ، وظل السالكون يتخرجون فى مدرسته إلى مدة قريبة ، قبل أن ينتقل إلى رحمة الله قبل بضع سنوات ، رحمة الله عليه وعلى عباد الله الصالحين .

طائفة البهرة

البهرة طائفة كبيرة العدد ، وأصلهم من ولاية " الكجرات " ، وهم جميعا تجار ، وأصحاب حرفة ، وقد سموا بهذا الاسم بسبب احترافهم للتجارة لأن كلمة "بيوهار " فى اللغة الهندية تعنى " التجارة " .

وتنقسم هذه الطائفة بدورها إلى طائفتين :

الطائفة الأولى : هي الطائفة الإسماعيلية الشيعية ، ويطلق عليهم " جماعة خورد " أو الجماعة الصغيرة ، ويقطن هؤلاء في " أجيّن " وفي " سرونج " وغيرها من المناطق الهندية .

والطائفة الثانية : هي طائفة أهل السنة والجماعة ويطلق عليهم " جماعة كلان " أي الجماعة الكبيرة ، ويقطنون في " بتنه " وفي " الكجرات " وفي " أحمد آباد " ، ومعظمهم يعمل بالحرف المتنوعة وبالصناعة والتجارة ، ويعملون في موانئ "سورت " و"جدة" ، بالإضافة إلى منطقة الحرمين الشريفين ، وأخلاق هؤلاء وعاداتهم وتقاليدهم موافقة للسنة النبوية ؛ بسبب تمسك علمائهم السابقين بالسنة والتزامهم بها ، ومن بين علماء هذه الطائفة السنية الشيخ محمد طاهر البتني رحمه الله .

ولم يكن بين هاتين الطائفتين ما يميز بينهما من قبل ، فكانوا جماعة متداخلة فيما بينها إلى أن قام السيد محمد طاهر (عليه الرحمة) في "بتنه" ، والسيد محمد جعفر (رحمه الله) في "أحمد آباد" بالاجتهاد في بيان الاختلاف بين الجماعتين والفصل بينهما ، وبذلا في سبيل ذلك جهدا وافرا حتى وضح الفرق بين عقائد كل جماعة ، وامتازت كل منهما عن الأخرى .

وقد سمعت من مولوي ولي الله حكايات عجيبة ، وقصصا فريدة عن طائفة البهرة، وصدق على ما قاله لي أحدهم ، وهو محمد بن جمال الدين الذي كان يرافقني في هذه الرحلة ، مسافرا معي على ظهر السفينة نفسها .

ومن تلك الحكايات والقصص أن صوفيًا زاهدًا نزل فى " بتنه " فى زمن الشيخ محمد طاهر رحمه الله ، فعامله بعض سكانها معاملة سيئة ؛ فدعا عليهم قائلا :

" اللهم اجعل كسب هؤلاء القوم مقدرًا فى السفر "

فلما وصل هذا الخبر إلى الشيخ محمد طاهر رحمه الله ، وأدرك أن دعاء الزاهد قد يجد القبول ، وقد تكون أبواب السماء مفتوحة ؛ تضرع إلى الله بالدعاء قائلاً :

" اللهم اجعل كسب هؤلاء القوم مقدرًا فى سفر الحرمين الشريفين "

ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا انتشر بينهم تقليد عجيب : فكانوا إذا ولد لهم طفل ، فكر والداه فى إرساله إلى الحرمين الشريفين ، قبل أن يفكرا - مثل الآخرين - فى حفل ختانه أو مثلما يفكر الوالدان فى تزويجه ، فإذا ما شب الطفل وبلغ عامه الثانى عشر أو الثالث عشر ؛ أرسلاه إلى مكة المكرمة ؛ وهكذا يذهب من " بتنه " كل عام إلى الحرمين الشريفين شباب فى سن المراهقة ، فيقومون هناك بخدمة الرؤساء والسادة ، بسواء كانوا من أقاربهم أو من الأغراب عنهم ، وهم يقومون بخدمتهم بكل إخلاص وتفان ، ويتعلمون خلال هذه المدة اللغة العربية ، وفن التجارة ، فإذا كان والد الشاب على قدر حاله ، وأتى السيد من الشاب رشدا وذكاء ؛ أعطاه قرضا يصبح رأس مال تجارته ، على أن يقوم بتسديد هذا القرض بالتقسيط على مدار عدة سنوات حسب الاتفاق ، لتصبح أرباح التجارة فيما بعد هى رأس المال .

وإن كان والد الشاب ثريًا ؛ أعطى ولده مبلغًا من المال إلى السيد المخدوم الموجود في الحرمين ؛ فيكون للسيد الثلث مقابل تعليم الشاب ، ويكون للشاب الباقى ، ويقوم أبناء الأثرياء بواجبات خدمة السادة مثلهم مثل أبناء الفقراء تماماً .

ويعود هؤلاء إلى وطنهم فى غضون عشرين أو ثلاثين سنة على الأكثر عندما يكون قد توفر لهم من المال ما يمكنهم من العيش عن طريق استثماره ، فإذا ما أرادوا أن يتاجروا فى الهند ، اتخذوا لأنفسهم محلات ودكاكين ، وإذا ما رغبوا فى التجارة فى بلاد الحرمين الشريفين ، عادوا فسافروا إليها ثانية ؛ ولهذا لا تجد من بين هؤلاء من لم يحج أكثر من مرة أو من لا يعرف العربية .

ومن عادة هؤلاء القوم أن يجتمعوا مرة كل أسبوع أو مرة كل عشرة أيام على مائدة الطعام .

العالم الجليل عبد الله التجرد (رحمه الله) :

هو عالم صالح تقى ورع لاهورى الأصل ، أخذ العلوم عن مولوى غلام محمد سابق الذكر فى " برهان بور " ، ثم زار الحرمين الشريفين ، وعاد ليستوطن "سورت " متوكلا على الله ، زاهداً فى الدنيا ، معلماً لطلبة الدين ، وذلك منذ ثلاثين سنة ، وقد استمر فى تدريسه علوم الدين للطلاب دون توقف مع أنه فقد بصره منذ عدة سنوات ، وكان الشيخ عالما متبحراً فى جميع الفنون والعلوم ، كما كان شاعرا يقرض الشعر

بالعربية والفارسية ، وقد أسمعنى بعض الأشعار لكثير من الأدباء ، أذكر منها :

" الموت ليس من الضعف أبداً

فنحن نعيش بقوة الضعف "

وأذكر أيضا :

" العقيق والجوهر شىء

والدمع الشبيه بالجواهر شىء آخر

فالغير غير ، والكبد كبد ."

ومن أشعاره التى نظمها بنفسه أذكر هذين البيتين : أولهما بالفارسية ، وثانيهما بالأردية :

" لا تسعى إلى التجرد من الذهب والفضة

فالأرض صارت خاشعة منذ وجدت الذهب "

" لم يعرف ما بك من لطف ولا مائة ملك

ما هى الشمس ؟ لم يعرف بها حتى الفلك " .

قبل مغادرتى مدينة " سورت " زرت الشيخ عبد الله التجرد ، وجلست معه طويلا ، واستفدت منه ، وقد حزن كثيرا عند رحيلى .

مقابر سورت :

في " سورت " مقابر السادة العيدروسيين الذين جاءوا من عدن عاصمة اليمن ، وشجرة أجدادهم ممتدة ، فمنهم أكابر إندونيسيا الذين انتشر بفضلهم الركبان ، وطار صيتهم في البلدان ، فكراماتهم معروفة ، وخوارق عاداتهم مشهورة ، يطلق عليهم " با علوى " نسبة إلى " أبي علي " ، يحترمهم أهل سورت جميعهم ، ويقدرونهم ويجلونهم ، والسيد محمد بن السيد عبد الله بن السيد زين العابدين من أحفادهم ، وهو بيننا اليوم ، يعيد ذكرى أسلافه الماضيين : في مكارم أخلاقه وحسن سيرته ، وقد وردوا من " عدن " إلى أحمد آباد (ولاية الكجرات) ، ومنها إلى سورت ، وخلاصة طريقة العيدروسيين أنهم يعملون بما ورد في إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الغزالي – رحمه الله – من الأفعال والأوراد .

خواجه محمد دهدار (رحمه الله) :

كان خواجه محمد دهدار معاصرا للشيخ خواجه ديوانه رحمهما الله ، وحاشيته على نفحات الأنس لمولانا " عبد الرحمن الجامي " تتضمن الحقائق والمعارف ، وقد طالعتها وأنا في مكة المكرمة ، توفي سنة ١٠٢٢ هجرية ، ويرمز إلى تاريخ وفاته بحساب الجمل بعبارة (خورد وبرد) ، وقد قال مولانا خير الدين : إن الشيخ دهدار كان

بحوزته " شعرة مباركة " من شعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد طلب منى أن أضع هذه الشعرة المباركة فوق عينيه عند دفنه ، وكانت هذه وصيته ؛ ففعلت وقد حثنى الشيخ خير الدين على زيارة قبر هذا الشيخ الفاضل قائلا :

" عليك بزيارة ضريح هذا الولى لأنه دفن معه جزء مبارك من بدن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" ، فلما زرت قبره انشرح صدرى ، وشعرت أننى بصحبة أحدَ العارفينْ بالله سبحانه وتعالى .

وفى ضواحى " رانديز " يوجد قبر الشيخ المعلم حسن الشهير بالمعلم بتابسى ، واللقب مأخوذ من كلمة " فيتابسى " بمعنى " منحة ماء السفينة " ، وكان من أهل التقوى والورع ، وشهرته هذه ترجع إلى حكاية سمعتها من ثقاة مدينتى " سورت " و" رانديز "، والله أعلم بصحتها.

يقولون بأنه بينما كان مسافرا على ظهر سفينة إذا بماء مضختها ينفد ؛ فاضطرب المسافرون ، وجاءوا إلى المعلم وأخبروه بالمسألة ، فطلب منهم ملئ المضخة بماء البحر وإغلاقها ؛ ففعلوا ما طلبه منهم ، وفى صباح اليوم التالى حين ذهبوا إلى المعلم ، وجدوه على فراشه ، وقد فارق الحياة ، فازدادوا حيرة واضطرابا فقد اجتمعت لهم مصيبتان : نفاد الماء العذب ، ووفاة المعلم حسن ، وكان مما خفف عنهم ما هم فيه من مصائب أن وجدوا رقعة تحت وسادته كتب فيها بخطه أنه " قد دنا أجلى ، فاشربوا ماء المضخة ، وضعوا جثتى فى التابوت ، واقذفوه فى اليم ، واتبعوا بالسفينة ، فإذا ما غرق التابوب ، أرسوا السفينة ."

وعندئذ فتحوا المضخة ، فوجدوا ماءها - كما ذكر المعلم حسن - عذبا ، وبعد غسله وتكفينه والصلاة عليه ، وضعوه فى التابوت ، ثم ألقوه فى اليم ، فإذا التابوت يجرى بإذن الله ، فتبعته السفينة ، ووضعوا عليه سراجا فى الليل حتى يدركوه ، فجرى التابوت عدة أيام ثم غاص ، وعندها أرسوا السفينة ، فإذا هم فى " باره رانديز "وباره بمعنى الرقم ١٢ ، أى المكان الذى يبعد عن "رانديز" مسافة ١٢ كوسا[٩] .

ثم وصلوا إلى الشاطئ بالقوارب الصغيرة فإذا بهم يشاهدون تابوت المعلم قد ظهر عند الشاطئ قبل وصولهم ، فرفعوه من الماء ودفنوه ، وقد تشرفت بزيارة قبره وشاهدت ما كتب عليه من تاريخ وفاته ، وهو سنة إحدى وعشرين بعد المائة السابعة من الهجرة النبوية (٧٢١ هجرية) .

يبعد البحر عن " سورت " مسافة اثنى عشر كوسا ، ولهذا يسمى هذا المكان "باره " أى اثنا عشر ، ونهر " تابتى" الذى ينبع من سلسلة هضاب " برهان بور" ويجرى عبر " سورت " يصب فى البحر، وفى منطقة " باره " تشاهد سفن كالأعلام ، لا يمكنها الاقتراب من مدينة "سورت " إلا إذا اشتد تلاطم الأمواج فى موسم الأمطار ، وخافوا أن تنكسر مرساة السفينة وسكانها من شدة الموج ، عندها تدخل السفن فى نهر " تابتى " وترسو قرب المدينة حتى تكون فى مأمن من مصائب الموج وأهواله ، كما أنهم اعتادوا أيضا إذا ما أرادوا تجديد طلاء السفن أو تجميل جوانبها الخارجية - بعد كل رحلة أو بعد كل رحلتين - أن يسحبوا السفينة إلى النهر قرب المدينة ، فيخرجونها إلى

البر ، كما أنه حين تبنى سفن جديدة على البر ، فيكون ذلك فى العادة على شاطئ نهر " تابتى " ، ثم تنزل إلى النهر فى أوقات المد ، ومنظر إخراج السفينة من النهر أو إنزالها فيه منظر عجيب ، لا يمكن أن يوصف ، ولا شك أنه فن عجيب .

وأثناء إقامتى فى "سورت " شاهدت بناء سفينتين جديدتين ، ورأيت - بأم رأسى - القدرة الإلهية العجيبة التى مكنت الناس من إنزال السفينة إلى النهر، وإيصالها إلى البحر .

ومن العجيب أن مد البحر يصل إلى " مدينة سورت " عن طريق النهر مرتين فى النهار والليل ، ويصل إلى أقصى مكان فى المدينة ، ويبقى ماء النهر عذبا كما هو فى كل وقت ، إلا إذا جاء موسم الصيف ، ففيه يهبط منسوب ماء النهر، ويغلب الماء المالح ؛ فيصل إلى المدينة ، ويكون ذلك فى شهرين من كل عام ، فلا يستخدم فيهما أهل المدينة ماء النهر ، وإنما يجلبون الماء العذب من الآبار والينابيع الموجودة فى ضواحى المدينة ، وكثيرا ما يجلبون الماء العذب من الأماكن التى تتجمع فيها مياه الأمطار ، ومن عادة أهل المدينة بناء الأحواض وخزانات المياه تحت الأرض فى المساجد الكبيرة ، وفى بيوت الأثرياء وقصورهم ، ويطلقون عليها اسم " تانكه " أى صهريج ، وتصلها مياه الأمطار من سطح المبانى بواسطة أنابيب خاصة ، وتكون مياهها كافية لحاجتهم فى تلك الأيام ، إلا أن مياه بعض الأحواض تنفد قبل حلول موسم الأمطار التالى ، ومن هنا بدأ الناس فى عمل مضخات

تسحب الماء من باطن الأرض ، وانتشر هذا في جميع مدن وبلدان ولاية " الكجرات " .

ومباني مدينة " سورت " - في معظمها - مكونة من أربعة طوابق ، ولا يعيش الناس إلا في الأدوار العلوية ، بينما يستخدمون الأدوار الأخرى لوضع الأمتعة ، وغرف الطوابق العلوية جميلة ، فخمة الأثاث ، رائعة المنظر ، ويستخدم خشب (الساج) ويقال له بالأردية (ساكون) وهو شبيه بخشب الزان ، في إقامة المبني ، ومنه تصنع القوارب صغيرها وكبيرها ، فميزة هذه الأخشاب أنها لا تتأثر بالماء، ولا يطولها التسوس ؛ ولهذا فهي تدوم طويلا .

مغادرة « سورت »

في يوم الخميس التاسع من جمادى الثانية غادرنا مدينة " سورت " وركبنا "سفينة الرسول " ، وفي اليوم الثاني عشر من جمادى الثانية رفعت السفينة مرساتها ثم أبحرت في يوم السادس عشر من جمادى الثانية ، وسفينة الرسول هذه سفينة صغيرة بالمقارنة بالسفن الأخرى ، وهي تحمل ٦١٢ راكبا ، وقد حدثني مولانا خير الدين أنه ركب عند العودة من رحلته الثانية للحج سفينة كبيرة تحمل ألف راكب ومائتان بالإضافة إلى أربعين فرسا ، مع بضائع تصل زنتها مائة ألف طن .

السفر البحرى

فن الملاحة :

طالعت كتابا فى فن الملاحة ، ودرست جزئياته خلال هذه الرحلة على يد المعلم - أى القبطان - الشيخ محمود ، ومقابل ذلك قمت بتدريسه علم الحساب . والحقيقة أن علم الملاحة من متممات نعم الله عز وجل ، فقد منّ الله على عباده فى كتابه الكريم ، بتسخير البحر وجريان الفلك ، ولو لم يلهم الله بنى آدم هذا العلم لما تمكنوا من ركوب البحر ، فقال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام : ٩٧) .

وقال أيضا :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (الشورى: ٣٢ - ٣٣) .

وهذا العلم مبنى فقط على غلبة الظن والتخمين ، المترتبين على ممارسة التجربة التى تقرب من اليقين ، وإن كان البعض يعتقد فى البداية أن هذا العلم صعب المنال ، إلا أن من ركبوا البحر مرات ، ووقفوا على علم الهيئة والحساب ؛ يمكنهم فهم هذا العلم بسهوله ويسر ، وأضرب لكم مثلا بأرض جافة مترامية الأطراف مثل صحراء واسعة أو أرض مجدبة ، لا علامات فيها ولا طرق ، فأراد إنسان أن يسلكها لأول مرة ؛ فلا شك أنه سيتحير ويقلق بل سيتيه ، بينما من سلكها مرات، ولديه تجارب سابقة في اجتيازها وعبورها ؛ سيمضى فيها دون تردد أو قلق، ولن يتيه فيها أو يضيع ، وسيكون اتجاهه مباشرة ناحية هدفه المنشود ، ليصل إليه فى سهولة ويسر ، والله أعلم .

ومن العجيب أن تصبح الملاحة هواية للإنجليز هذه الأيام ، فإذا ما اشتد هبوب الرياح نشر ملاحوهم أشرعة سفنهم ، زادوا من سرعتها بالتجديف مثلهم مثل الفارس البطل على صهوة جواده الرامح ، دون خوف أو وجل ، والحكايات التى تحكى عن مهارتهم فى هذا الفن تثير استغراب السامعين ، فيحملونها على المبالغة والمغالاة ، وعندنا ملاح هندى ماهر فى فن الملاحة ، لا نظير له فى هذا الفن ، لكن حين تشتد الرياح يصيبه الخوف والفزع ؛ فيطوى بعضا من أشرعة السفينة !!

بعد أن مضت بنا السفينة ، ومرت أيام قليلة ، صادوا سمك " الأبنوس " وهو يشبه سمك " رهو" الكبير ، ولونه جميل ، وطعمه لذيذ ، وقد بيع فى مزاد على ظهر السفينة ، وقد رأيت سمكة ضخمة تشبه العجل الصغير بالقرب من جزيرة : "سقطرة" .(١٠)

والأسماك - سبحان الله - أنواع وأقسام ، وكنت أسمع عن السمك الكبير جدا لكنى لم أر منه شيئا فى رحلتى البحرية هذه ؛ فسألت المعلم عن هذا السمك الضخم فقال : نحن نشاهد فى هذا البحر الأسماك الكبيرة أيضا ، لكن الأسماك الأخرى التى يصل طولها إلى ستين أو سبعين ذراعا فلا توجد فى بحر الصين .

كان لى رفيق على ظهر السفينة ، سبق له ركوب البحر مرارا ، أخبرنى بأنه رأى فى هذا البحر أسماكا يصل حجمها حجم الفيل .

" جزيرة سُقطرى وهائى شامى"

ظهرت لنا على الأفق البعيد جزيرة " سُقطرى " (١١) ، كان ذلك فى يوم الإثنين العاشر من شهر رجب ، وجزيرة سُقطرى جزيرة آهلة بالسكان ، ومنها تتزود السفن بالماء العذب عند الحاجة ، وأحيانا يحمل سكان الجزيرة الماء العذب إلى السفن فى قوارب كبيرة ، وفى صباح يوم الحادى عشر من رجب بدت لنا جزيرة " هائى شامى " ، وفى يوم الثالث عشر من رجب شاهدنا جبلين كبيرين يطلق عليهما " أبا الجوزاء " .

وفى هذه الأيام سكنت الرياح ليومين أو أكثر ، ولهذا ظلت السفينة واقفة دون حراك معظم الأوقات ، وكاد الماء العذب أن ينفد ، فزاد ثمنه لدرجة أنهم كانوا يشترون ثمانية " أكواز " بروبية ، واضطرب المسافرون وعمهم القلق ، فى ذلك الوقت فكر العبد الفقير ، فيما ينتظر

" المسئول عن الطعام " [١٢] ، والله وحده يعلم ماذا سيكون عليه حال " المسئول عن الماء " ؟!!

وفى اليوم الرابع عشر من رجب جرت الرياح بما تشتهى السفن ، لكنها سكنت مرة أخرى فى اليوم التالى ، وهكذا قطعت السفينة فى خمسة أيام ما تقطعه عادة فى يوم واحد ! وفى اليوم التاسع عشر مرت السفينة بجبل " كاكى " ، ثم اتجهت إلى " عدن " ، ورغم أن عدن قريبة من جبل " كاكى " إلا أن السفينة قطعت هذه المسافة فى أربعة أيام ، والسبب بالطبع هو سكون الريح ، وقد ظهر لنا جبل عدن ، ظهر يوم السبت الثالث والعشرين من رجب .

عــدن

عدن مدينة مشهورة فى بلاد اليمن ، وهى الموطن الأصلى للسادة العيدروسيين، فيها مزارات مشايخهم القدامى ، فى الليل اتجهت السفينة ناحية " مخا " التى تبعد عن عدن مسافة (١٢٠ كوس) أى : ٣٢٤ كيلو مترا على وجه التقريب ، ولما كانت الريح مواتية وصلت السفينة إلى باب المندب - وهو اسم جبل فى وسط البحر - على مسافة ٧٩ كيلوا مترا ظهر يوم الرابع والعشرين من رجب ، ويقع الباب الصغير - وهو إسم يطلق على سلسلة الجبال الواقعة على ساحل اليمن - شمال باب المندب ، وقريب منه ، بينما يقع الباب الكبير ، وهو

اسم يطلق على امتداد سواحل الحبشة جنوب باب المندب ، ويطلق عليهما العوام " باب سكندر " وهم مخطئون لأن " باب سكندر" يقع فى نواحى الروم .

وحين مضت السفينة ، واجتازت هذا المكان احتاط المعلم (القبطان) كثيرا ، وحاول أن يسيطر على السفينة تماما حتى لا تنحرف يمينا أو شمالا - ولو قليلا - عن الطريق المحددة لها ؛ ذلك لأن مياه البحر هنا غير عميقة ، كما أن المجرى مملوء بالصخور ؛ مما قد يؤدى إلى تحطم السفن أحيانا ، وقد حمدنا الله كثيرا على أننا اجتزنا بفضله الباب الصغير بسلامة وأمان .

وفى المساء رست السفينة فى مكان يبعد عن مخا مسافة (١٢ كوسا) -٣٣ كيلوا مترا تقريبا - وفى صباح اليوم التالى تحركت السفينة لتصل إلى ميناء " مخا " فى المساء ، والمسافة بين " مخا " و"جدة" حوالى (٦٠٠ كوس) أى ١٦٢٠ كيلو مترا تقريبا ، بينما المسافة الإجمالية بالبحر من "سورت" إلى "جدة " (٢٤٠٠ كوس) أى : حوالى ٦٤٨٠ كيلو مترا .

مصائب الرحلة البحرية

تعد أعمال الملاحيين وواجباتهم من عجائب السفر بالبحر ، فهم يقومون بأعمال وحركات يصعب حتى على البهلوان ولاعب السيرك أن

يأتى بهـا ، وقد رأيت المعلم (القبطـان) يأمرهـم بالصـعود أعلى القلع أى عـمـود الشـراع ، وهو فى غـاية الارتفـاع ، فـيـصـعـد هؤلاء بـواسطة الحبال ، فى أصعب الظروف ، فيفتحون الشراع حينا ، ويطوونه حينا ، ويقومون بهذه الأعمال بشكل سريع جدا ، وبطريقة محكمة، لا تحتمل الخـطأ ، تثير إعـجاب المشـاهدين ودهشـتـهم ، ويرددون كلمـا قـامـوا بعمل مـا - لا سيما عندما يرفعون المرساة - عبارات وجملا ، ينطقونها بلهجة خاصـة، وهى فى مجملها قريبة من العبارات العربية التى تتضمن أذكارا وأدعـيـة ، وهـم يتـرنمون بهـا بـأسلوب خـاص ، يثـيـر مـشـاعـر السامعين ، ويؤثر فى القلوب .

ومما لا شك فيه أن للرحلة البرية متاعبها بل مصائبها ، ورغم أن هـذه المتـاعب غيـر يسيرة ، لكن تكرارها يجعل المسافر يعتاد عليها ، فـلا يشعر بها ، ويختلف الأمر بالنسبة للرحلة البحرية ، فهناك الخوف من الغرق ، وهناك معاناة العطش إذا ما نفد الماء ، ومعاناة الجوع إذا مـا نفدت مئونة الطعام ، والمسافرون الذين تربوا وعاشوا فى سعة من العيش لا يكون لديهم قوة تحمل الجوع أو الصبر على العطش كما أنه يغلب عليهم الخوف والجزع مما قد يتعرضون له ، وليس من الضرورى أن يواجـه المسـافـرون المصـاعب والمتـاعب فى كل مـرة ، وليس من الضـرورى أيضـا أن يتـعـرض كل إنسـان لمصـائب السـفـر البـحـرى ، والناس نوعـان : نوع يحكى مـا تعرض له من مصـائب ومتـاعب بشكل واقـعى دون زيادة ، ونوع يبـالغ فى بيـان مـا تعـرض له من مـصـائب ومتاعب ، ويضيف ويزيد من عنده الكثير مما لم يحدث له .

إن من أكبر المتاعب فى الرحلة البحرية هو أن سفر السفينة متوقف على حركة الرياح ، ولم يجعل الله لأحد سلطان عليها ، فهى تجرى بأمر الله رب العالمين ، وقد قال الشاعر :

" القدرة الإلهية تمضى بالسفينة حيث يشاء الله

لا حول ولا قوة للملاح

فهو لا يملك من أمر نفسه شيئا

سوى أن يمزق ثيابه جزعا وهلعا " .

فهذه هى اللحظة التى يظهر فيها جليا عجز الإنسان وضعفه ، وتتجلى أمامه بكل وضوح قدرة الله الحق جل جلاله ، ويدرك تمام الإدراك أنه لا فاعل ولا مؤثر إلا الله سبحانه وتعالى ، وهكذا امتن الله - فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم - على عباده بأن سخر لهم الفلك فقال تعالى:

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ (الإسراء : ٦٦ - ٦٧)

والحقيقة أن ما يتحمله الإنسان من متاعب ، وما يتجشمه من مصائب فى هذه الرحلة - رحلة الحج - يكون ثوابه عند الله عظيما ، وكان مولانا خير الدين السورتى يقول : مهما يتعرض المرء من مصائب فى هذا السفر ، فهذا معناه أنه صادق فى طريقه وفى سفره ، وقد جاء

فى الحديث الشريف : "حفت الجنة بالمكاره" ، أى أن الجنة محاطة بالمشقات ، وبما يخالف أهواء النفس .

وأرى أن هناك نوعين من البشر يستشعرون لذة السفر إلى الحرمين الشريفين شريطة أن يكون دافعهم إلى هذه الرحلة الشوق : فالنوع الأول هم أولئك الذين يمتلكون جميع لوازم السفر ، وما يحتاج إليه الأثرياء عادة ، والنوع الثانى هم الفقراء الذين يتحملون المتاعب ، ويصبرون على المصائب ، ويردون كل ما يتعرضون إليه فى السراء والضراء إلى قدر الله عز وجل ، والناس من غير هذين النوعين ممن يوجهون جل همهم إلى عدة السفر وعتاده أو تمتلئ قلوبهم بالرياء وحب الشهرة ، فأمثال هؤلاء يصيبهم الخوف والجزع إذا ما تعرضوا لمتاعب السفر أو مصائبه ، ورغم أن هؤلاء ذاهبون لأداء النسك ، إلا أنهم قد يرتكبون المعاصى والذنوب ، فنعوذ بالله من ارتكاب ما لا يرضى ، وما لا تحمد عقباه .

بقى أن أتحدث عن حالى ، وما جال فى خاطرى وفى بالى أثناء هذا السفر ، فالحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه وسلم .

الحمد لله فقد أحاطتنى النعم الإلهية فى هذه الرحلة ، وغطتنى الأفضال الربانية ، فلم تصبنى مصيبة ، ولم أتعرض لتعب أو مشقة ، وكنت فى جميع الأحوال معافى ، وفى جميع الأوقات فى راحة تامة ، رغم أننى شعرت حين كانت السفينة تمر بجزيرة " سُقطرى " بالعطش

الشديد ، فتذكرت زمن الحسين بن على - رضى الله عنهما - وما جرى له فى " كربلاء " ؛ عندئذ اطمأن قلبى ؛ وهدأ فؤادى ؛ وتحسنت حالى ؛ ولم تعاودنى هذه الحالة مرة أخرى .

وحين اشتد لهيب نيران الشوق ، نظرا لطول زمان السفر ، ومخافة فوات موسم الحج ؛ لم أر ما أعتمد عليه سوى الرضا بقضاء رب العالمين ، وتفويض أمرى إلي أحكم الحاكمين ، وما أصدق قول الشاعر عن حالنا :

" أتعثر وأسقطُ مئات المرات

قبل أن أصل إلى بابه

ذلك لأننى ربيب صغير

بينما هو فوق غصن مرتفع "

إن راحتى وسعادتى تكمن فى الرضا بما حكم الله ، ومن صار من عادته الرضا بحكم الله ؛ ارتاح على الدوام قلبه ؛ واطمأن فؤاده ، ومن لم يرض بقضاء الله ؛ عاش مغموم القلب ، مهموم الفؤاد ، وقد قال الشاعر :

" يا من أنت كرة أمام مضرب القضاء

تحمّل فى صمت ضرب اليمين وضرب الشمال

فالذى قذف بك هنا وهناك

هو العالم ، العليم ، علام الغيوب . "

إن الرضا بقضاء الله والتسليم به أصل أساس فى الطريقة الصوفية ، وفى التربية الروحية ، فمن اتصف بهذه الصفة ، ومن كانت لديه هذه القناعة ؛ تمتع على الدوام بالراحة فى الدنيا وبالنعيم فى الآخرة ، ومن يصاب بالغم والهم من قضاء الله الذى يحل به فى هذه الدنيا ؛ فهو مصاب بذلك لأنه لا يسلم بقضاء الله ، ولا يرضى به .

ومن مصائب هذه الرحلة أن يكون الصديق غير صدوق ، وأن يكون الرفيق مفتقرا للإخلاص ، مفتقدا للتفاهم ، وأشكر الله (سبحانه وتعالى) على أن وفقنى فى هذه الرحلة لصحبة أصدقاء مخلصين ، ورفقاء متفاهمين صادقين .

والواقع أن الناس فى الأسفار يميلون إلى مراءاة الآخرين ، ويؤدون لهم الخدمات طمعا فى الحصول على المنافع العاجلة ، والفوائد السريعة ؛ لذا نراهم يصبرون على تجاوزاتهم إذا ما تعرضوا منهم لأذى ، ويتحملون ظلمهم إذا ما ظلموا ، لكن فى سفرى هذا لم ألحظ شيئا من هذا الأمر ، فكثيرا ما شاهدتهم يشتكون بعضهم ، وغالبا ما يكون مرتكب الخطأ معذورا فيما فعل ، وأحسبهم لو اكتفوا بالشكوى ، وحافظوا على ما بينهم من ود ؛ لكان أطيب لهم ، لكن البعض قد يجعل من الشكوى سببا فى القطيعة ، وفقدان المودة ، نعوذ بالله من سوء الخلق، وعدم الوئام .

وقد ورد فى كتب الأخلاق أن مقتضى حسن الخلق أن يحسن المرء إلى من أساء إليه ، وإن لم يستطع ذلك ، فليجعل شعاره الصبر

والتحمل ، وليجعل دثاره التذلل والدعاء ، ولا يواجه أخاه أبدا باللوم والعتاب ، ولا يشكو منه لأحد أبدا ، فقد قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت : ٣٤)

وقد سُئل حكيم : كيف تعرف سوء الخلق من صاحبه ؟ فأجاب : إذا اشتكى ممن أساء إليه ، وقال شاعر حكيم :

" صرت بسبب حسن معاملتى شمعة أسرتى

أصبر وأتحمل لهيبى وحرقتى

بينما الآخرون يفيدون من ضوئى ونورى " .

وأذكر هنا أن بعض المسافرين فضلوا النزول من السفينة فى "مخا" بعد معاناتهم من قلة الماء العذب ، ومن العواصف التى كادت أن تطيح بالسفينة ، بينما فضل آخرون النزول فى " الحديدة " ، وسيأتى ذكرها ، وكان عدد من غادر من الركاب مائة ، بينما بقى على متنها مائة آخرون ، بالإضافة إلى طاقم السفينة من الموظفين والعمال .

" مــخـا "

نزلنا لزيارة مدينة " مخا " والتفرج عليها في السادس والعشرين من رجب ، وأقمنا في رباط يسمى " وكالة المدينة " لأن مؤسسه - جزاه الله خيرا - وقف دخله على المدينة المنورة ، و" مخا " من أكبر موانئ اليمن وأشهرها ، وهي مدينة صغيرة محاطة بالأسوار ، ومعظم بيوتها مكونة من ثلاثة أو أربعة طوابق ، ومن أهم مزاراتها :

١ - مزار الشيخ صندل وهو في داخل المدينة .

٢ - مزار الشيخ جوهر وهو في واحة تقع خارج المدينة .

ولم أتمكن من معرفة أحوال هذين الوليين ، وحاكم هذه البلاد سيد حسني من بني أعمام أشراف مكة المكرمة ، ويلقب بالإمام وبأمير المؤمنين ، وقد ضربت النقود هذه الأيام باسم حاكم البلاد الحالي وهو " أمير المؤمنين المنصور بالله ".

وحاكم اليمن وعامة الناس هنا على مذهب الزيدية ، بينما أكثر سكان المدن والأمصار على مذهب الإمام الشافعي ، أما أهل السند الذين استوطنوا اليمن فما زالوا على مذهبهم الحنفي ، وإمام المسجد هناك شافعي المذهب ، ويقتدي الجميع - الحاكم والرعية الزيديون - بالأئمة الشافعية والحنفية ، ويصلون خلفهم في صلواتهم ، وقد درست قبلا بعض القضايا الفقهية المبنية على مذهب الزيدية ، ونظرا لقصر وقت المقام بينهم ؛ لم أتمكن من الاستفسار بالتفصيل من أحد علمائهم عن بعض مسائل مذهبهم .

مما يثير العجب هنا – والضجر أيضا – أن الناس جميعهم – العامة والخاصة – يستحمون عرايا ، جهارا نهارا ، كما خلقتهم أمهاتهم ، دون أدنى شعور بالحياء أو الخجل .

عاد من تبقى منا إلى السفينة فى السابع والعشرين من رجب ، لمعاودة السفر بالبحر ، وهناك طريقان للسفر بحرا من " مخا " إلى " جدة " :

الطريق الأولى : هى طريق البحر الكبير ، وأقصد الطريق التى تكون مياهها عميقة وهى وسط البحر ، وتستغرق هذه الطريق ما بين سبعة أو ثمانية أيام ، إذا كانت الرياح مواتية ، وإلا اضطرت السفن إلى العودة من حيث أقلعت.

والطريق الثانية : هى طريق البحر الصغير وأقصد الطريق المتصلة بساحل اليمن والموازية له ، والمياه فيها ليست عميقة ، وهى محفوفة بمخاطر الصخور الموجودة على مقربة من سطح الماء ، التى ترتطم بها السفن أحيانا فتتحطم ، وتستغرق هذا الطريق خمسة عشر أو ستة عشر يوما ، ولا يخشى فيها أن تعود السفن من حيث أقلعت ؛ ذلك لأنها تبحر نهارا ، ثم تتوقف فى أحد الموانئ إذا ما جَنَّ الليل، وإذا صارت الرياح غير مواتية ؛ بقت فى مرساها ، وإذا احتاج المسافرون إلى الماء شروه من أهل القرى الموجودة على الساحل ، كما أن الركاب يمكن أن ينزلوا من السفينة فى أى وقت شاءوا ، ويكملوا رحلتهم بالطريق البرى ، إلا أن مخاطر هذه الطريق كثيرة وعديدة ؛ لهذا

لا تفضل هذه الطريق إلا فى ظروف خاصة ، ولا يستطيع ربانية السفن الهنود المجازفة بالمضى بالسفينة من هذه الطريق ، لأنهم لا يعرفون موضع الخطر ، ومواقع الصخور التى قد تواجه سفنهم ، فهم فى العادة يستعينون بربابنة البحر العرب لقيادة سفنهم حتى " جدة " .

وقد أبحرت سفينتنا من " مخا " مساء يوم الجمعة التاسع والعشرين من رجب .

جبل الذكر

عندما اقتربت سفينتنا من " جبل الذكر " هبت الرياح بما لا تشتهى السفن ؛ وهكذا لم تتحرك سفينتنا إلى الأمام قيد قدم واحد ، وكاد ماء الشرب ومخزون الطعام أن ينفدا ، ووصلت الحال بنا إلى الرضا بجرعة ماء أو جرعتين فى اليوم والليلة ، وبلغت القلوب الحناجر ، وعم اليأس قلوب المسافرين ، لدرجة أن بعضهم بدأ يشرب ماء البحر المالح ؛ مما أصابهم بالألم والوجع حتى إذا ضقنا ذرعا ، هبت ريح طيبة ، ونجانا الله من تلك المهلكة ، لكن كيف تم ذلك ؟

عادت سفينة صغيرة من " الحديدة " فحُمل إلينا الماء العذب من الساحل ؛ فارتوينا وحمدنا الله رب العالمين .

أما عن سبب تسمية هذا الجبل " بجبل الذكر " فيقال : إنه كثيرا ما تضطر السفن إلى التوقف قبالة هذا الجبل ، فى انتظار أن تهب الرياح ،

ومن هنا يلجأ جميع المسافرين على ظهر السفينة إلى الله عز وجل بالذكر والدعاء ، ويتوسلون إليه بسيد الأبرار ، شفيع يوم القيامة ، ولهذا السبب أطلقوا على هذا الجبل اسم "جبل الذكر " .

الحديدة

وصلت السفينة إلى " الحديدة" يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، و"الحديدة" ميناء من موانئ اليمن ، فالحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وقد أبحرت السفينة من الميناء فى الثالث والعشرين من شعبان .

وكان موسم الأمطار على الأبواب ، بسحبه السوداء المحملة بالأمطار ورياحه الشديدة ، ووجوه المتقلب ، وانتهى تقريبا موسم السفر بالبحر ؛ ولهذا هدّأت السفينة من سرعتها ، وأخذنا ندعو الله عز وجل بواسع رحمته أن يشملنا بحسن توفيقه لحج بيته الحرام ، وزيارة روضة حبيبه ، خير الأنام وعليه أفضل الصلاة والسلام .

قرية على ساحل البحر

زرت قرية على ساحل البحر كانت السفينة قد توقفت عندها فى يوم الأربعاء السادس والعشرين من شعبان ، تتكون القرية من أكواخ ، جدرانها من الخشب وأسطحها من العشب ، ولا يوجد فيها من

الأشجار إلا القليل من أشجار النخيل، وبعض الأشجار الأخرى التى تستخدم أوراقها فى صنع ما يشبه الأكياس ، وليس فيها زراعة ، وقوت أهل هذه القرية والقرى الساحلية الأخرى هو السمك والحبوب ، ويأتون بها من أماكن أخرى ، ولولا حبهم لموطنهم هذا لما أقام فيه واحد منهم .

وفى هذه القرية مزار " عيسى بن أحمد الزيلعى " رحمه الله ، وقد زرته وسمعت من الناس هناك الكثير من مناقبه .

جزيرة كمران (١٣)

"كمران " جزيرة بعيدة عن ساحل اليمن ، وتقع فى منتصف الطريق بين "الحديدية" و"اللحية" ، وقد وصلتها السفينة يوم الجمعة الثامن والعشرين من شعبان ، كانت كمران من قبل ميناء عامرا ، لكنها الآن خربة ؛ وصارت "اللحية" ميناء بدلا منها ، ترسو فيه السفن ، وفيها مسجد كبير ، لكنه آيل للسقوط ، وقلعة صغيرة يقيم فيها ضابط الشرطة التابع لحاكم اللحية ، كما يوجد عدد من الأكواخ المتفرقة ، ويسكن أهل "كمران " بعيدا عن القلعة ، وهناك بعيدا عن المساكن توجد حدائق من نخيل ، وتوجد آبار مياه عذبة ؛ ومن هنا يقوم أصحاب السفن بشراء ما يحتاجونه من ماء عذب ، يكفيهم فى رحلتهم حتى وصولهم إلى جدة ، ويعيش السكان هنا على هذه الآبار ، وهم يحملون الماء إلى السفن ، وليس فى أرضهم عشب ولا كلأ ، وليس لديهم حيوانات ولا زراعة ، أما الحبوب وضروريات الحياة الأخرى فيأتون بها -

بالسفن – من اليمن ، أو يشترونها من أصحاب السفن ، مقابل تزويد السفن بالملح الكمراني، وتقع مناجم هذا الملح (الملاحات) بالقرب من ساحل البحر في المنطقة المقابلة لجزيرة كمران .

وقد نزلنا هناك من أجل تنظيف الملابس والاستحمام والحصول على الماء العذب ، فرأينا من أحوال معيشتهم ما يثير الحزن في القلوب ، وتذكرت نعم الله – سبحانه وتعالى – على بلادنا : إذ فتح فيها أبوابا من النعم الوفيرة ، وسألت رجلا منهم :

– كيف تعيشون هنا ؟

– أليس فيما منّ الله به علينا من ماء عذب، وأسماك طازجة، وقليل من نخيل ما نعيش عليه ؟!

فتذكرت حكمة اللطيف الخبير ، وتدبير الرزاق القدير : إذ أخرج لعباده من هذا البحر ماء عذبا ؛ حتى ينتفع به أصحاب السفن ، ثم أسكنه جماعة من الناس كي يحملون هذا الماء إليهم ؛ فأتم بهذا التدبير المحكم حاجة الفريقين ، فسبحان الله !!

وبالقرب من هذه الجزيرة يوجد الكثير من اللؤلؤ والمرجان ، ويقولون إن موسم صيدها يكون في شهور الصيف الأربعة ، إلا أن لؤلؤ البصرة أجود من اللؤلؤ المستخرج من هنا .

أحببت كمران حبا جما ، وتمنيت لو أقمت فيها ، فقد تذكرت قول الشاعر :

" مات كثير من الناس

لم يبك عليه أحد ".

فلا توجد عزلة أفضل من العزلة هنا ، لكن هدفى المنشود ليس "كمران" ، إنه فيما وراء "كمران "، هدفى آت فيما بعد ..

ظهرت لنا جزر كثيرة ، بعضها صغير وبعضها كبير ، لكنها جزر خربة ، غير آهلة بالسكان ، وهى تنتشر عن اليمين وعن الشمال ، ويقال إنه بين " المخا " و"جدة " ما يقرب من ثلاثمائة جزيرة ، ظهر بعضها إلى الوجود منذ سنوات قليلة ، كما تآكلت بعض الجزر الكبيرة ، فصارت صغيرة الحجم .

سألت " المعلم " (القبطان) يوما عن هذه الجزر وأحوالها ، فحدثنى عن جزيرتين كبيرتين فى المحيط الهندى وفى بحر العرب ، وقال إنه من الصعب إحصاء جزر البحار ، ثم تحدث عن جزر " جاوة " فقال : إن جميع سكانها مسلمون ، على مذهب الإمام الشافعى ، وهم يعظمون الحجاج ، كما أنهم متمسكون بتعاليم الدين، ولا يوجد لهم فى الشجاعة مثيل ، وكان على ظهر سفينتنا أربعة أو خمسة منهم يقصدون الحج ، ولغتهم غير مفهومة على الإطلاق ، وقد وجدت من بينهم نفرا واحدا يفهم القليل من العربية ؛ فعرفت منه نبذة عن أحوال "جاوة" وأوضاعها .

وقد سمعت أيضا بعض أحوال الجزر وغرائبها من "شاه أحمد الله " الذى قام بأسفار كثيرة قبل أكثر من ثلاثة عقود ، وعاش فى "لكهنو"

و"مراد آباد" فضلا عن "الدكن" معززا مكرما ، وهو يقيم الآن ما بين "أحمد آباد" و"بتنه" - بتاء هندية - و"الكجرات" (بكاف فارسية)، وهو يتحلى بالأخلاق الكريمة والصفات الحميدة ، وقد أدى حج هذا العام ، وكان بيننا معرفة سابقة ، فسبحان الذى من آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم و ألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين .

عبد الرحمن الفرنسى

كان عبد الرحمن الفرنسى واحدا من بين ربابنة سفينتنا ، وهو حديث عهد بالإسلام ، له خبرة عظيمة فى قيادة السفن ، سألته يوما عن أحوال الإنجليز وعن أحوال إمبراطوريتهم فأخبرنى - بعد أن ذكر عجائب كثيرة عنهم - عن رئيس من رؤسائهم السابقين كان يعيش قبل أربعين سنة ، وكان من المغرمين بالتجول فى بحار العالم ، وحدث أن ركب السفينة من فرنسا ، ومر بموانئ إنجلترا والبرتغال وإسطنبول والمغرب ، وموانئ الحبشة والهند بما فى ذلك الدكن والبنغال حتى وصل إلى الصين ، ثم مضى شمالا حتى وصل إلى مكان لا تطلع فيه الشمس مدة أربعة أو خمسة أشهر ، وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه بعد أن استغرقت رحلته سبع سنوات زار خلالها ربع الكرة الأرضية ، ثم جمع فى كتاب جميع مشاهداته فى الرحلة ، ووصف موانئ العالم ومميزات كل واحد منها ، كما وصف الطرق التى سلكها فى رحلته ، وصار هذا الكتاب مرشدا فى يد الملاحيين يستعينون به فى أداء مهمتهم، وقد ترك هذا البحار عمله ومسئولياته كلها ، وفضل التقاعد والراحة فى منزله .

ميناء اللحية

أبحرت السفينة من "كمران" فى الثانى من شهر رمضان ، ثم توقفت عند الظهر فى ميناء "اللحية " ، ولما لاحظ الملاحون وسائر موظفى السفينة أن موسم الرحلات البحرية قد انتهى وأن الرياح سكنت تماما ولا أمل فى أن تجرى ثانية ؛ انقطع رجاؤهم فى الوصول إلى جدة ، وهبطت عزيمتهم ، وهكذا أراد مالك السفينة أن يبيع جميع حمولتها وما بها من بضائع ، ثم يُعيد السفينة إلى " سورت " ، ويلجأ إلى تأجير سفينة من " اللحية " للوصول بها إلى " جدة " إلا أن الأمور لم تمض على هواه ؛ فحين ذهب ومن معه لعقد اتفاقية البيع ، لم يوفق فى ذلك ، فرجع يائسا ، وهكذا ركبنا سفينتنا فى الخامس من شهر رمضان متوكلين على الواحد الديان ، متجهين إلى " جدة " ميناء " مكة المكرمة " .

وفى الثامن من رمضان وصلت السفينة مقابل ميناء " جازان " وهو أحد أراضى اليمن ، ويحكم هنا فى غالب ظنى أشراف مكة .

هبت رياح مضادة ؛ مما جعل السفينة لا تتحرك إلا لمسافة قصيرة ، كما أنها لم تتمكن من التوقف إلا فى أماكن معينة ؛ خشية تحطم مرساة السفينة من شدة الرياح وتلاطم الأمواج العاتية ، وإذا حدث هذا لا قدر الله ، فستدفع العواصف بالسفينة وتدفعها للوراء كما تشاء ، وهكذا فضلنا أن نكون بالقرب من الموانئ ، حيث تكون الأمواج هادئة فلا تصاب السفينة بمكروه لا تحمد عقباه .

وفى اليوم الثانى عشر من رمضان هبت ريح عاصفة ، وعلت الأمواج حتى صارت كالجبال ، وأخذت تتلاعب بالسفينة ، وتحركها يمينا وشمالا ؛ فأخذت السفينة تدور حول نفسها ؛ مما أفقد معظم الركاب صوابهم ؛ فاختلت حواسهم ، وأصيبوا بالدوار والقيء ، تماما مثلما حدث لهم فى أول أيام الرحلة ، واضطرت السفينة إلى أن ترسو يوم الثالث عشر على ساحل جزيرة " مرسا " وحملتنا قوارب صغيرة إلى تلك الجزيرة فى آخر النهار . والجزيرة ما هى إلا جبل يتميز بانحداره الشديد ، وهو غير مرتفع ، وتوجد منطقة منبسطة تنبت فيها أشجار، يشبه ورقها ورق " الأثل " ، ورأينا فيها أحجارا مختلفة الألوان ، خلابة المنظر ، كما لاحظنا وجود مقابر كثيرة ، وقد استرحنا فى الجزيرة إلى الغروب ، ثم رجعنا إلى السفينة بعد الإفطار .

وفى اليوم الرابع عشر من رمضان أبحرت السفينة ، لكنها لم تتقدم قدما واحدا بسبب هبوب الرياح المعاكسة ، ووصولها إلى مكان الجزيرة ، فعادت السفينة من حيث أتت منذ يومين فقضينا هناك يوما، وهكذا خسرنا مسيرة يومين ، وفى اليوم السادس عشر وصلت السفينة إلى " متنل " .

بين " جازان " وميناء " القنفذة " (٩٦ كوسا) ٢٦٩ كيلومترا ، ولم نكن قد عبرنا نصف هذه المسافة حتى ذلك الوقت ، وقد مضى من الأيام سبعة أيام ، وكنا ننوى النزول فى ميناء " القنفذة " حتى نركب مركبا أو سفينة صغيرة تحملنا إلى "جدة " ، ويستغرق السفر بالمركب أو السفينة الصغيرة أربعة أيام فقط ، إذا كانت الرياح مواتية ، وبين

"جدة " و"القنفذة" مسافة ٤٨٦ كيلومترا ، فإذا لم تكن الرياح مواتية فسنسلك الطريق البرية ، وفيهت تكون المسافة إلى مكة المكرمة مسيرة تسعة أيام ، ومن الواضح أن الطريق البرية محفوفة بالمخاطر والمصائب لكن كل صعب بمشيئة الله يهون .

القنفذة

تأسفت على شيء عجيب يروج فى بلاد اليمن والحجاز ، وهو أمر مخالف للشريعة الإسلامية ، وأقصد ختن الأطفال بعد سن البلوغ ، والمبالغة فى قطع جلد الحشفة ، وسألت الجمّال عبد الله الذى رافقنى من "القنفذة" إلى مكة المكرمة عن هذه العادة ؛ فأجاب بأن هذه عادة منتشرة هنا ، فسألته : كيف عودتم أنفسكم على أمر يخالف الشريعة الإسلامية ؟ فأجاب : اعتاد الناس على هذا رغم أن هذه العادة مخالفة للسنة النبوية ، وغير موافقة للشريعة الإسلامية [١٤].

وكانت السفينة قد دخلت ميناء " القنفذة " فى الثامن والعشرين من شهر رمضان ، و"القنفذة" من أعمال "جدة" وتوابعها ، يسكن أهلها على الساحل ، وبيوتهم وأسواقهم على شكل أكواخ عادية ، ومشابهة لما شاهدناه من قبل فى بلاد العرب ، فلا ترى جدارا مقاما من اللبن أو الحجارة إلا فى مسجد ، أو فى مسجدين ، ولا ترى - مهما دورت نظرك - شجرا ظليلا ، أو عشبا أخضر ، وهم يجلبون الماء العذب من أماكن بعيدة جدا ، وهناك قرية مقابلة لها على جزيرة صغيرة تتكون من بيوت

قليلة ، وتوجد قلعة ذات أبراج ، ولا يوجد لعمال أشراف مكة " سجن " في هذا المكان ، ويلقب نائب شريف مكة في جدة وسائر الموانئ بالوزير والدولة .

الطريق البرية

نزلنا جميعا من السفينة بعد رحلة بحرية استغرقت مائة يوم وعشرة أيام وذلك في يوم الإثنين لآخر يوم من رمضان ، بعد أن قررنا أن نسلك الطريق البرية ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن الرياح الشمالية بدأت تهب بشدة ؛ وهكذا توقف سير السفن المتجهة ناحية " جدة " وبدأت ترتب أمر العودة إلى "سورت " وهكذا استأجرت بيتا لأقيم فيه حتى موعد الرحيل .

صلاة عيد الفطر المبارك

في يوم الثلاثاء غرة شوَّال – يوم عيد الفطر – خرج وزير " القنفذة " ويدعى " مبارك " مع جماعته ونحن معهم إلى المصلى لصلاة العيد ، وتمنيت أن يوفقني الله للجلوس بالقرب من الخطيب ؛ حتى أتمكن من سماع الخطبة بسهولة ، رآني الوزير مبارك ، حين كنت أجلس بعيدا تحت أشعة الشمس ، فناداني وأجلسني بجانبه تحت الظل ، وصلى بنا القاضي صلاة العيد على مذهب الإمام الشافعي ، بسبع تكبيرات في

الركعتين قبل قراءة الفاتحة[١٥] ، وبعد الصلاة ألقى نجل القاضى خطبة طويلة ، كانت بليغة وفصيحة ؛ تركت أثرا قويا فى فؤادى ، بعدها صافح المصلون بعضهم ، وقام بعضهم بتقبيل رأس الوزير ، ولم أشاهد عادة العناق التى تنتشر بيننا فى الهند .

فى مساء يوم السبت الخامس من شوَّال ، غادرت " القنفذة " على ظهر بعير اكتريته من الجمَّال " عبد الله "، ومن عادة الناس هنا أنهم يركبون ظهر راحلتهم عند المساء ، ولا ينزلون عنها طول الليل ، وقد ينزلون عنها قبيل طلوع الصباح أو بعد طلوع الشمس ، ويتوقف الأمر على وقت الوصول إلى مكان الماء ؛ وذلك لأن السفر فى النهار شاق ، وقد يؤدى إلى الهلاك بسبب ريح السموم .

ومن الجدير بالذكر أن الجمال تمشى بنفسها دون أن يمسك أحد بزمامها ، ويمنع أصحابها المشاة من التقدم عليها ، بحجة أن هذا ينسى الجمال الطريق ، فإذا وصلت إلى المنزل الذى اعتادت عليه توقفت ، ثم بركت ؛ وهكذا تفعل الإبل التى تليها .

نزلنا فى " ميناء إبراهيم " صباح يوم الخميس العاشر من شوَّال ، وميناء إبراهيم قرية صغيرة على ساحل البحر ، وبعد يومين وصلنا إلى " السعدية " حيث يوجد بئر كبير فى حضن الجبل ، شربنا ماءه ، لم نذق ماء مثله منذ دخولنا بلاد اليمن حتى وصولنا إلى هذا المكان .

وشاهدنا فوق الجبل قبرا عليه قبة ، وعند رأس القبة لوحة حجرية ، لم أستطع قراءة ما كتب عليها بسبب الظلام وتآكل الحروف ،

وينسب هذا القبر إلى حليمة السعدية ، ويعتقد أن قبيلة " بنى سعد " كانت تعيش فى هذا المكان من قبل ، وقد ساورنى الشك فى هذا الأمر لأننى لم أر أثرا من آثار العمران هنا ، وعندما سألت علماء مكة ، واستفسرت منهم عن حقيقة الأمر ، قالوا بأن " السعدية " اسم للمكان ليس إلا ، ولا علاقة له ببنى سعد ، وبيوت بنى سعد فى " هوزان " المتصلة بحنين بين مكة والطائف ، أما قبر " حليمة السعدية " فيوجد فى جنة - أى مقبرة - البقيع فى المدينة المنورة .

"يلملم" ومسجد سيدنا على (رضى الله عنه)

"يلملم " ميقات أهل اليمن منطقة جبلية تقع فى " السعدية " ، عند محاذاتها يحرم ركاب السفن القادمة من الهند متجهة إلى جدة ، ومن هنا أحرمنا نحن آخر النهار ، ويقع مسجد سيدنا على (كرم الله وجهه) على الطريق المؤدية إلى مكة المكرمة من "السعدية " ، وبجواره بئر ، ذهبت إلى المسجد بعد الإحرام ، وصليت فيه ركعتين ، وحين سألت بعض الأعراب عن المسجد ، قالوا : إنه مسجد سيدنا على (رضى الله عنه) ، ولم يزيدوا شيئا على قولهم هذا ، لكنى تذكرت أمر خروج النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة للحج فى حجة الوداع ، وكان على (رضى الله عنه) آنذاك قاضيا على اليمن ، فسمع بخبر خروج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة للحج ؛ فخرج بدوره من اليمن سائقا الهدى ، ولقى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى مكة ،

فلعله أحرم من هذا المكان فى يلملم ، فاتخذه من جاءوا بعده مسجدا تبركا ، وحين ذكرت الأمر للمفتى عبد الملك وافقنى على ما قلت .

الكعبة المشرفة

بعد يومين من رحيلنا من "السعدية" ، وفى ضحى يوم الإثنين الرابع عشر من شوّال ، ألقينا عصا الترحال عند بيت الله الحرام ، زاده الله كرما وتشريفا .

وتجلى لى جمال الكعبة ، ألقيت عليها نظرة واحدة ، فإذا بمتاعب السفر قد زالت وإذا بمصائبه قد تلاشت ، ولم أعد أشعر بما كنت أعانى من مشقة ، نتيجة المشى على الأقدام بملابس الإحرام ، تحت وهج الشمس المحرقة ، وعلى الرمال الحمراء الملتهبة ، مسافة تزيد على اثنى عشر كيلومترا ، إن نظرة واحدة لجمال الكعبة المشرفة ، أزالت عنى جميع متاعبى السابقة ، وسوف تزول بإذن الله أية متاعب لاحقة إلى أن يتوفانى الله رب العالمين ، وجال فى خاطرى قول الشاعر :

" إن جمال الكعبة يقبل عذر من مضوا فى سبيله

فكم من أصحاب القلوب المضيئة احترقوا فى صحرائه "

ها أنا ذا أصلى صلاة الظهر داخل الحرم الشريف ، وأطوف بالكعبة المشرفة ، وأسعى بين الصفا والمروة ، ثم أتحلل من الإحرام بالحلق .

لا يمكن للمشتاق مثلى أن يعبِّر عما يجيش فى قلبه من شوق إلى جمال المصطفى (صلى الله عليه وسلم) عندما يصل هنا ، إلى هذه البقعة المنيرة وهذا المورد العذب ، لا يمكنه أن يعبِّر عما فى ضميره من سرور، عندما يتقصى أثر موضع أقدام النبى (صلى الله عليه وسلم) وعندما يتخيل تجليات محياه المشرق على هذا المكان الطاهر ، وتذكرت قول الشاعر :

"كلما مضيت على طريق

أضع الرأس هناك

على أمل أن تكون قد مضت هناك قدماك ."

وليس بخاف على المريد المخلص ، الذى اكتحلت عيناه بنور الهداية ، وتنورت بصيرته بنور العناية ، مدى تأثير الحرمين الشريفين ، والجبال المحيطة بهما والوديان والصحارى ، وكل مكان شرف بملامسة جسده الشريف ، وشرف برؤية وجهه المشرق بالجمال المحمدى ، والروحانية المحمدية ، والنورانية المحمدية التى منحه الله إياها ، وقد قال الشاعر :

" إن عبير العشق لا يزال يفوح من كل مكان

وصل إليه النسيم الذى كان يهب من فوق زلف الحبيب "

فالحمد لله ، والشكر لله على توفيقه ، فقد أديت الصلوات الخمس فى المسجد الحرام .

فى المسجد الحرام

قرر أهل مكة – منذ زمن بعيد – أن يصلى إمام الشافعية الفجر أولا، ثم تقام صلاة الفجر التى يؤمها الإمام المالكى بعد ذلك مباشرة ، ويلى المالكى الحنبلى ، وأخيرا الحنفى ، بينما يبدأ إمام المالكية صلاة الظهر والعصر والعشاء ، ويليه الشافعى فالحنفى ، أما صلاة المغرب فيبدأها الحنفى فالشافعى ، بينما يبدأ المالكى صلاة العشاء ، وما عدا صلاة الفجر ، لا تقام جماعة خاصة بالإمام الحنبلى ، بل يصلى أتباعه خلف الأئمة الآخرين ، وليس لهم جماعة مستقلة بهم ، وتتصل إقامة المتأخر بسلام المتقدم فى سائر الجماعات ، إلا أن إمام الحنفية يؤخر صلاة الفجر إلى الأسفار ، ولا تكون متصلة بسلام الحنبلى ، والصلوات الأخرى يصليها الإمام الحنفى فى أول أوقاتها ، ومعظم المصليين لا يتقيدون بإمام مذهبهم ، إنما يصلون وراء الإمام الأول ، ومع هذا فهناك بعض المتعصبين الذين ينتظرون جماعة إمامهم .

وقد اختلف العلماء – أيضا – فى مسألة جواز الاقتداء بإمام مذهب مخالف ! وكتب فى هذا الموضوع كثير من الرسائل ، وقد طالعتها ، وخلاصتها : أنه لم يكن فى القرون الأولى فى زمن الصحابة ، والتابعين ، والأئمة المجتهدين ومن بعدهم – لا فى أرض الحرمين ولا فى غيرها – تعدد للجماعات المذهبية المختلفة ، وكان المسلمون يقتدون بإمام واحد ، مهما كان مذهبه ، والشاهد الباقى على هذا إلى الآن هو صلاة الجمعة ، وهكذا فتعدد الجماعات ، وتحديد المصليات

والمساجد، والتقيد بالاقتداء بإمام دون غيره ، بدعة ابتدعها بعض المتعصبين لمذهبهم فى الصدر الأول .

والرأى الراجح الذى اختاره العلماء الباحثون فى مختلف المذاهب هو أنه يجوز الاقتداء بالإمام المخالف ، كما يجوز الاقتداء بالإمام الموافق ، ومنهم من فصل ، ومنهم من أطلق ، فقالوا : إذا كان الإمام المخالف يراعى مذاهب الآخرين فى مواضع الاختلاف ، فالصلاة وراءه صحيحة ولا كراهية فيها ، وإذا لم يراع ذلك ، وعلم المقتدى أنه ارتكب مخالفة ففيه قولان :

أجاز البعض الاقتداء به فى هذه الصورة أيضا ، فى حين قال البعض بعدم جواز ذلك .

وقد سمعت من بعض أئمة مكة المكرمة : أن أئمة المذاهب الأربعة تلقوا أوامر مؤكدة من السلطان ، بأخذ الحيطة ، ورعاية جميع المذاهب فى باب الطهارة ، وكتبت فى ذلك وثائق رسمية ، سلمت إلى مجلس السلطان ؛ حتى لا تبقى فى صلاة المقتدين بأى من الأئمة شائبة كراهة من أى نوع ، وذلك باتفاق العلماء ، فهم يراعون جميع المذاهب ، ولا يتساهلون مع من يفعل غير ذلك .

ويؤدى علماء هذه الأيام عادة الصلاة مع الجماعة القائمة أيًّا كانت ، وقد سألت المفتى عبد الملك الحنفى – وهو من أكابر علماء العصر – عن هذه المسألة فقال : نحن نصلى مع الجماعة الأولى .

ومن الجدير بالذكر : أن جماعة الإمام الحنفى تضم عادة أكثر المصلين عددا فى الصلوات الخمس ، لا سيما فى صلاة المغرب ، التى يصطف فيها حول البيت الحرام خيرة العلماء ، يليها فى كثرة العدد جماعة الشافعية ، أما فى جماعة المالكية فيلاحظ فيها الزحام وقت صلاة العشاء وهى التى تبدأ الجماعات الثلاث : الظهر ، والعصر ، والعشاء ، أما مصلى المذهب الحنبلى فلا تقام فيه إلا صلاة الفجر ، وحالها مع ذلك لا يسر ، فغالبا ما يصل عدد المصلين فيها إلى عشرين مصليا فقط !

لا يوجد مثيل فى العالم كله لكثرة الناس الذين يقيمون الصلوات فى المسجد الحرام ، لا سيما فى أيام الحج ، وخاصة وقت صلاة الجمعة والمغرب ، وقد ألقيت مرة بنظرة على ذلك الجمع الغفير ، فقلت لنفسى : إن كل فرد من بين هؤلاء يتوجه إلى بيت الله ، فعلمت أنه لا بد وأن بداخلهم بعض صفات عباد الله ؛ فدعوت الله أن يمنحنى خير الدارين متوسلا بهذا الجمع الغفير من عباده الصالحين .

فى عالم الخيال

ذات ليلة - وبينما كان المطاف مزدحما بالطائفين - خُيِّل إلىّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطوف حول الكعبة ، ومن حوله جماعة من الصحابة الكرام ، وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعانى لأطوف معهم .

وذات يوم وبينما كنت أتضرع إلى الله بالدعوات ، تذكرت قصة فتح مكة ، وخيل إلىّ أن النبى (صلى الله عليه وسلم) واقف أمام بيت الله الحرام ، وقد اجتمع من حوله الصحابة بحسب درجاتهم ، أما كفار قريش فقد أحضروا إليه ، وهم فى خوف وذعر ، لكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصفح عنهم ، ويعفو عنهم ، ويقول لهم كما قال يوسف بن يعقوب : " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم " .

وبعد أن جال هذا الخيال بخاطرى ، أخذت أتوسل إلى الله بنبيه الكريم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن يغفر لى ، وأن يقضى حوائجى وحوائج أقربائى وأحبتى فى الدنيا والآخرة ، وتضرعت لله أن يقبل دعائى ، وأنشدت قول الشاعر :

" كيف تحرم الأصدقاء عطفك

وأنت الذى تعطف على الأعداء !! "

وكثيرا ما وضعت رأسى على عتبة باب الكعبة منشدا هذا البيت :

" ليس لى ملاذ سوى عتبتك هذه

وليس لرأسى من موضع سوى هذا المكان ."

وكنت أشعر براحة شديدة ، وأنا أترنم بأبيات الشيخ " نظامى " (١٦) عليه الرحمة ، تلك الأبيات التى أنشدها أثناء الطواف أمام باب الكعبة المشرفة ، بالقرب من الملتزم :

" يا من وهبتنى العقل ، منى العمل ومنك العناية

لا أحمل قلبا ، والطريق شاقة ، فاهدنى يا إلهى إلى الصراط

إن نلت مرة ذرة من كيمياء الإخلاص صرت من الخواص

ليس هناك من هو أنعم ممن يجلس على مائدتك

وليس هناك من هو أكرم ممن هو فى جنابك

فهبنى يا إلهى قلبا صافيا ، وروحا يقظة

وهبنى يا إلهى تضرع الخائف ، وبكاء المتضرع فى السحر

هب لى نشوة لا أذكر فيها غيرك

واهدنى إن صحوت من نشوتى إلى طريق معرفتك ."

داخل البيت الحرام

كان من حسن حظى ، ومن بواعث سرورى وغبطتى ،أن تشرفت بدخول الكعبة يوم الخميس الموافق الخامس عشر من ذى القعدة ، وهو اليوم الذى فتح فيه باب الكعبة لدخول عموم الناس ، عندها دعوت الله الوهاب أن يمنحنى خير الدنيا والآخرة ، وأن يشملنى برحمته ومغفرته ، ودعوت لأقاربى وأصدقائى وللأحياء والأموات ، وتضرعت لله أن يقبل دعواتى ، فهو وحده قاضى الحاجات ، وهكذا كنت أرفع كفى التضرع إلى المولى عز وجل ، الخبير العليم ، فى كل الأماكن المشرفة ، والمواقف المعظمة ، وفى كل الأوقات ، راجيا أن يكون الوقت وقت إجابة الدعاء

ولم أتأخر أبدا أو أبخل بالدعاء لصديق أو رفيق أو عزيز ، ولكل ذى حق من نوى الحقوق ، فقد دعوت للجميع ذاكرا الأسماء بالتفصيل حينا وبالجملة حينا ، والله المستجاب .

مواعيد دخول الكعبة المشرفة

يفتح باب الكعبة المشرفة لدخول عموم المسلمين ثمانى مرات فى السنة :

١ - يوم عاشوراء (العاشر من محرم)

٢ - يوم الثانى عشر من ربيع الأول

٣ - مرة فى شهر رجب

٤ - مرة أخرى فى شهر رجب

٥ - يوم الخامس عشر من شعبان

٦ - أول جمعة فى شهر رمضان

٧ - آخر جمعة فى شهر رمضان

٨ - الخامس عشر من شهر ذى القعدة

بينما تخصص الأيام التالية لما ذكر قبلا لدخول النساء .

تجلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى المنام

من جملة نعم الله تعالى على العبد الفقير ، وهو ما يستوجب الشكر والحمد عملا بقوله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدث " ما سأذكره الآن ، وهو أمر خاص يستحق أن يذكر فيشكر .

صليت الفجر فى الحرم الشريف ، ثم تلوت القرآن الكريم عند مقام إبراهيم ، وبعد ذلك ذهبت إلى بئر زمزم ، وتصدقت على الساقى ، ثم طلعت فوق البئر ، وألقيت نظرة على الماء - وهو مأجور من الله تعالى - ثم أدليت الدلو بنفسى ، وسحبته ، وشربت حتى تضلعت عملا بما جاء فى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ورجعت إلى البيت ، واستلقيت ونمت أطلب الراحة ، كان ذلك يوم الأحد الموافق للعشرين من شهر ذى القعدة ، فرأيت فى منامى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يمشى على طريق ، وأنا أمضى وراءه ، أحاول أن أضع قدمى على أثر قدمه المبارك ، وبينما أنا كذلك إذا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسرع الخطو ، ويدخل حجرته ، فرجوته أن ينتظرنى ، وأن يحقق لى أمنياتى ، أمرنى الرسول بالدخول إلى حجرته ، فعرضت عليه ما أتمنى وأرغب ، وهو تقبيل قدمه المباركة ، فمد رجله الشريفة كرما منه ، قبلت قدمه ولامستها بعينى ، ثم تفضل على بأشياء لم أكن أظن أننى أهلا بها ، ولا داعى لذكرها فى هذه الصفحات .

ويحضرنى هنا ما قاله الشاعر : " لا غرابة فى حفاوة الملوك بالغرباء"

وقد حظيت بمثل هذه الرؤيا فى اليوم العاشر من شهر رجب ، عندما اقتربت السفينة من جزيرة " سُقطرى " ، لكنها كانت مجملة ، بينما هذه رؤيا مفصلة ، وقد حظيت بمثلها - أيضا - عندما كنت أمضى فى الهضاب الوعرة قبل ركوب البحر ، كما أكرمنى الله بها فى هذه الرحلة للمرة الرابعة ، وذلك بعد وصولى إلى المدينة المنورة ، ليلة الرابع عشر من ربيع الثانى ، وكانت هذه الرؤيا الأخيرة عجيبة الشأن .

فى منى وعرفات ومزدلفة

فى اليوم الخامس من شهر ذى الحجة أهللت بالحج تحت " ميزاب" الرحمة بعد الغسل بماء زمزم ، وفرغت من السعى بين الصفا والمروة ليلة السابع من ذى الحجة، وفى يوم الثامن من ذى الحجة يوم التروية انطلقنا إلى منى ، بعد أن صلينا الجمعة فى المسجد الحرام ؛ فوصلنا منى وقت العصر .

لاحظت أن معظم الحجاج يتركون سنة المبيت بمنى ، ويذهبون إلى عرفات فى هذا اليوم ، وكنت أنا من بين القلائل الذين بتنا هذه الليلة فى مسجد الخيف ، ثم انطلقت إلى عرفة فى الصباح .

وبعد أن صلينا صلاة الظهر والعصر جمعا مقدما فى مسجد إبراهيم توجهنا إلى جبل الرحمة ، ووقف الإمام بجوار أريكة من الأرائك

حتى المساء ، ويتراءى للناظر جمع غفير من الناس ، منهم الشاب ، ومنهم الشيخ العجوز ، ومنهم الرجال ، ومنهم النساء ، منهم الغنى ومنهم الفقير لا يعلم عددهم إلا الله العليم الخبير ، وقفوا جميعا فى " عرفات " خاشعة قلوبهم ، دامعة عيونهم ، مرفوعة أيديهم إلى السماء ، ألسنتهم تلهج بالذكر والدعاء ، كان هذا أمرا عظيما ، وقد خُيِّل إلىّ أن هذا مثال حى على وقوف الناس بين يدى الله يوم القيامة ، كما أن الإفاضة من هذا الموقف إلى بيت الله الحرام تشبه عودة المؤمنين من موقف الحشر إلى دار السلام .

أقمنا فى عرفات إلى ما بعد غروب الشمس ، وصلينا المغرب والعشاء جمع تأخير ، وقد وصلنا إلى منى وقت الضحى يوم النحر ، وقمنا بالطواف حول الكعبة بعد رمى الجمرات ، وقضينا النفث ، ووفينا النذور .

بعد الطواف تشرفت بدخول الكعبة المشرفة ، وكان هذا الدخول بطريقة خاصة ، ذلك لأن حامل مفتاح الكعبة - وهو من بنى شيبة - يفتح باب الكعبة المشرفة فى هذا اليوم ، ويسمح لبعض الناس بالدخول بعد أن يتسلم منهم " حق المفتاح " ، ورجعت إلى منى بعد أن صليت الظهر فى المسجد الحرام ، وفى يوم النفر الأول - أى فى الثانى عشر من ذى الحجة - غادرنا منى بعد رمى الجمار ، وصلينا العصر فى " المحصب " ، وهو المكان الذى صلى فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو الآن مسجد ، قيل إن فناءه هو محل نزول النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ويُسن للحاج النزول به والتوقف عنده ، إلا أننى صليت المغرب والعشاء فى المسجد الحرام .

وأذكر هنا أننى أنبت شخصين صالحين للحج عن والدى ، وقد أديت العمرة والطواف مرارا وتكرارا نيابة عنهما ، وعن بعض ذوى الحقوق .

نهر زبيدة

أمرت " زبيدة " زوجة الخليفة العباسى هارون الرشيد بشق هذا النهر ، وهو نهر عظيم المنفعة ، كبير الفائدة ، يقول العلامة قطب الدين (رحمه الله) صاحب " تاريخ مكة ": إن " زبيدة أنفقت فى سبيل إجراء هذا الخير الدائم مليونا وسبعمائة ألف أشرفى ، وقد جاء العمال إلى بغداد حاملين معهم حساب التكلفة بعد أن فرغوا من شق النهر ، وحين قدموا لها كشف الحساب ، وكانت إذ ذاك جالسة على شاطئ نهر دجلة ، فألقت به فى دجلة قائلة : " تركنا الحساب ليوم الحساب ، " ثم أردفت" : من كان له على حق فليتقدم وليأخذ حقه ، ومن بقى لديه من حقنا شىء فقد عفونا عنه " ، ثم ألبست الجميع خلعة ، وأعطت كل واحد منهم منحة ؛ وهكذا بقيت هذه الصدقة الجارية ذكرى عطرة لها بعد وفاتها .

الحرمان الشريفان وسلاطين المسلمين

إن من يطالع كتب التاريخ يرى ما يدهش العقل حين يطلع على الخيرات والصدقات ، وما يقدم لإنشاء المستشفيات وتأسيس المدارس

والمساجد ، والرباطات ، والخانقاهات ، التى أوقفها حكام المسلمين وسلاطينهم على الحرمين الشريفين ، فجميع بلاد مصر وبعض من أعمال الشام موقوفة على الحرمين الشريفين من قبل سلطان الروم (١٧)، إلا أن سلاطين تلك البلاد قد قصروا هذه الأيام فى أداء منافع الوقف كاملة إلى الحرمين الشريفين ، ورغم هذا فما يصل منها إلى الحرمين ، ويصرف على الخدم الدائمين وعلى المؤذنين والمدرسين والقضاة والمفتين وغيرهم من سكان الحرم ، وكذلك ما يصرف على الفرش والقناديل والمصابيح مبلغ كبير جدا ، إذا ما عرفنا أن فى مكة المكرمة ٨٥ إماما من الأحناف ، و ١٥ إماما من الشافعية ، و ١٥ إماما من المالكية ، وإمام أو إمامان من الحنابلة ، وكلهم معينون من قبل السلطان ، وقد قام مندوبو الخليفة عن ديار مصر بعد حج هذا العام - ولعدة أيام - بتقسيم الرواتب على خدام الحرم الشريف ما عدا المؤذنين والمكبرين والأئمة ، ويشاهد لدى هؤلاء المصريين كل يوم كومة من الذهب يقسمونها بين النساء .

أما رواتب الأعراب الذين يسكنون على طول طرق الشام ، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة فهى مقررة لهم مقابل قيامهم بالحفاظ على سلامة الحجاج المسافرين عبر هذه الطرق ، وقد أسعد الله سلطان الروم (١٨) ؛ فجعل الحجاز فى حوزته ، وسلطان الروم الحالى هو السلطان عبد الحميد خان ، وما زالت شوكة أسرته وعظمتها باقية ببركة خدمة الحرمين الشريفين ، ودعوة أهلهما ، وهى على قوتها وعظمتها الأولى منذ أن ظهر الجد الأعلى عثمان التركمانى سنة ٦٩٩

هجرية إلى يومنا هذا ، فبعد مضى خمسمائة سنة وسنتين لم تصب أركان سلطنتهم بضعف أو وهن ، وما زالوا يجاهدون فى سبيل الله ، ويرابطون فى الثغور لإعلاء كلمة الله ، ويفتحون بلادا جديدة يضمونها إلى بلاد العالم الإسلامى ، ويرفعون علم الحق عاليا خفاقا ، اللهم انصر من نصر دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقد ورد فى الحديث النبوى : أن ثواب أعمال الخير مثل ثواب الصلاة والصيام والصدقة وغيرها ، وأن ثواب أعمال الخير فى الحرمين أضعافا مضاعفة ، إذا ما قورنت بثوابها فى البلاد الأخرى ؛ فهى تضاعف فى مكة المكرمة بمائة ألف ضعف ، وفى المدينة المنورة بعشرة آلاف ضعف ، بالإضافة إلى ثواب الإحسان إلى أولئك الناس الذين اختاروا مجاورة بيت الله الحرام ومجاورة مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إنه بلا شك ثواب عظيم .

ويقوم الملوك والأمراء الآخرون بتقديم خدماتهم إلى الحرمين الشريفين كل على قدر استطاعته ، فالسلطان تيمور ، ونصير الدين بلوج - بجيم فارسية - ونظام على خان ، وغيرهم من أمراء وسلاطين الدكن فى الهند - مثلا - كانوا يرسلون الصدقات إلى الحرمين الشريفين باستمرار ودون انقطاع ، وكان الأمير محمد على خان يرسل مائتى ألف كل عام ؛ طمعا فى أن يدعو له أهل الحرمين بالتوفيق والرشاد ، وقد بعث ملك المغرب هذه السنة مبلغا كبيرا من المال : لأشراف الحرمين ولغيرهما ، وللبدو الذين يسكنون منطقة الحرمين ، والذين يسكنون المنطقة الممتدة من الحرمين حتى اليمن ؛ وقد تم تقسيم الأموال على

هؤلاء جميعا ، وقد شاهدت دراهم المغرب ؛ ولاحظت أن على أحد وجهيها نقشت الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ (التوبة : ٣٤) .

وقد كان سلاطين الهند يرسلون كل عام مبلغا كبيرا من المال إلى الحرمين الشريفين ، ويخصصون ثلاث سفن ملكية لنقل الحجاج على حساب الإمبراطور ، والإمبراطور محمد شاه رغم أنه لم يعد يهتم كثيرا بشئون البلاد إلا أنه كان حريصا على هذا الأمر ، ولم ينل أحد من ملوك الهند وأمرائها حظ خدمة الحرمين الشريفين بعد الإمبراطور محمد شاه ، ولم يذكر إسم أحد من ملوكها أو أمرائها فى الحرمين الشريفين فى هذا الشأن ، والأمراء والحكام الذين لم يتعلموا شيئا من الإنفاق فى الخير ولم يدرسوا من نحو الخير شيئا إلا مسألة ما لا ينصرف ، ما زالوا يجمعون الروبيات ويكنزونها ، وسوف تزول شوكتهم ، وينتهى أمرهم لا محالة ، ويعلم نهايتهم الإنجليز والمراهتة ..

وقد تذكرت قول الشاعر :

" الكرماء ليس عندهم درهم

بينما أصحاب الدراهم ليس عندهم كرم "

الثمار والخير والرزق الوفير فى واد غير ذى زرع

هذا واد قفر ، غير ذى زرع ، كل ما فيه هضاب ومرتفعات صخرية ، لا ترى فيه العين شجرة مثمرة ، أو شجرة ظليلة ، ومع هذا

ترى أسواق هذا الوادى مملوءة بالرزق ، والخيرات الكثيرة ، فيها فواكه من جميع الأنواع والأقسام ، ولا سيما العنب والرمان ، والسفرجل والبطيخ ، وهى موجودة بوفرة فى كل وقت وزمان ، وهذا ثمرة دعاء سيدنا إبراهيم (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم) حين دعا ربه قائلا : وارزقهم من الثمرات ، وهذه الفواكه تأتى من الطائف ومن مناطق أخرى ، وقد ذكر لى أحد التجار ذات يوم : بأن سوق مكة دخله ذلك اليوم مائة وخمسة وسبعون حمل بعير من البطيخ ، وقد بيع البطيخ كله قبل حلول المساء ، ولم يبق منه شىء.

وتستورد الفاكهة من اليمن ومن مسقط ، كما تجلب من الطائف وبعض مناطق الحجاز ، بينما يستورد القمح والأرز من مصر والهند بالسفن ، وكانت أسعار الحبوب هذه السنة رخيصة جدا ، ويقول أهل مكة : إنهم لم يشهدوا منذ عدة أعوام انخفاضا فى أسعار الحبوب مثلما شهدوا هذا العام ؛ إذ كان ثمن تسعة أكيال من القمح ريال واحد ، وهذا يعنى أن تسعة سير(١٩) قمح بمكيال الهند ثمنها وبالتحديد فى مراد آباد روبية واحدة ! كما أن البضائع الأخرى والقماش بأنواعه والأوانى والمجوهرات وغير ذلك متوفر بكثرة فى كل مكان ، كما أن العبيد والجوارى الحبشيات يباعون فى سوق النخاسة .

مشهد منى

يعد مشهد منى من عجائب موسم الحج ، فمنى تعج بما فيها من محلات الثياب الفاخرة ، والهدايا النفيسة ، والأوانى الجيدة النادرة ، والفواكه الطازجة ، لذيذة الطعم ، وهو ما لا يمكن وصفه أو تخيله ، وقد قال أحد الشعراء فى وصف منى :

" تعالوا إلى منى ، وانظروا إلى بهجة الأسواق

فما أشبه زحامهما بزحام يوم القيامة .

صُمت الآذان من شدة الصخب

وارتفاع الأصوات هنا وهناك .

انظروا إلى الدنانير اللامعة كأنها النار

إن حرارة سوق منى من لهيب تلك النار."

أشراف مكة

هذه البلاد وهذه الحكومة تخضع منذ قرون من الزمان لحكم أشراف مكة المكرمة ، وهم من السادات الحسينية ، وجميعهم من أهل السنة والجماعة ، وأما نسبة بعضهم إلى الزيدية بالقول بأنهم بنو زيد : فهذا لا يعنى نسبتهم إلى الطائفة الزيدية ومذهبها ، وإنما هى نسبة إلى جدهم الأعلى ، وهو الشريف زيد بن حسين (رضى الله عنه) ، وغالبيتهم على مذهب الحنفية .[٢٠]

أما شريف مكة الحالي فيدعى الشريف سرور بن ساعد ، وهو يأتمر على مكة منذ سبع عشرة سنة ، حين توفي والده ، خلفه عمه الشريف أحمد ، فهرب سرور من مكة إلى جدة ، وكان شابا صغيرا ، ونظرا لما كان عليه من شجاعة وبسالة ؛ فقد تمكن من تجهيز جيش ، ظل يحارب به عمه مرة بعد مرة حتى انتصر عليه وأسره ، وتولى السلطة ، وقد ازدهرت البلاد تحت إمرته ، وقويت شوكته يوما بعد يوم ، حتى تمكن من إخضاع قبائل العرب التي ظلت تحارب أجداده وآباءه ، وقد كان السر في نجاحه وعلو شأنه أنه منذ إستيلائه على السلطة سنة ١١٨٤ هجرية إلى هذا الوقت ، وهو يحكم بالعدل والإنصاف ، بل جعلهما نهجا لحكمه ، وكان هذا بتأييد من الله عز وجل ، وقد بذل كل طاقته في القضاء على الظلم والفساد ، واتجه إلى تعمير البلاد ، وإسعاد العباد ، فقد أوقف " رسم الغرامة " الذي كان يفرض على الناس في العهد السابق ، وخاصة عهد أبيه الشريف ساعد ، وشدد قبضته على الظالمين وقطاع الطريق ، بل طهر مكة حتى من ظلم أقاربه وعدوانهم على المسافرين ، وظلمهم للمغتربين فوق أرض الحرمين الشريفين ، وقضى على العلماء الذين كانوا يساندون الظلم في عهد أبيه رياء وتملقا ، وهكذا انتشر الأمان - بعون الله - في أرجاء البلاد ؛ فصارت الطرق آمنة من اعتداءات البدو الظالمين؛ فصار الحجاج والمعتمرون يمضون في حال سبيلهم آمنين مطمئنين ، كما صار أهل مكة يتمتعون بعيشة طيبة بالإضافة إلى الأمن والأمان ، وقصص الشريف سرور في القضاء على الظلم وقمع الفساد مشهورة بين الناس ، اللهم أيده تأييدا خفيا من عندك : على نصرة دينك ، وإسعاد خلقك .

وقد وجه الشريف سرور اهتمامه بالمدينة المنورة أيضا ، وأخضعها - بعد جهد كبير - إلى إمرته ، وشمل سكانها بعطفه ونعمه الكثيرة ، لدرجة أن الجميع هنا: شيخ الحرم ، والشرطى ، والمدنى ، والبدوى ، لا يعصون أوامره ، فى الوقت الذى لم يكن لأجداده وآبائه سلطان على المدينة سوى ذكر أسمائهم فى خطب الجمعة ليس إلا ، وكانوا يكتفون بتعيين نائب عنهم على بيت المال .

ومما يذكر عن الشريف سرور أنه يؤدى صلاة الجماعة فجر كل يوم فى الحرم الشريف ، ثم يطوف بالكعبة مثله مثل أى مسلم عادى يطوف ، ليس معه حرس أو خدم ، ولا يستطيع أحد أن يفرق بينه وبين أى طائف آخر بالحرم ، وحينما يقترب من الحجر الأسود ، ويشاهد زحام الناس يقف عنده منتظرا فرصته ، فإذا وجدها استلم ، ولم يعين حارسا يبعد عنه الناس أو يمنع المحتاجين عن الوصول إليه .

وكان الشريف قوى الشوكة عالى القدر ، عظيم الهمة كالملوك الآخرين ، وكان عليه مسحة من وقار ، وهيبة ، لا يستطيع أحد سوى القضاة والمفتين الجلوس بمجلسه .

وذات يوم اقتربت من " الملتزم " بعد الانتهاء من الطواف ، فرأيت الشريف واقفا أمام بيت الكعبة ، آخذا بأستارها ، يدعو الله فى تضرع وخشية ، ولا يمكن لأحد أن يميزه عن غيره من الغرباء والمساكين الواقفين عند باب الكعبة ، فلما رأيته على هذه الحال ؛ تذكرت عظمة رب البيت ؛ وأدركت حقارة الدنيا ، وتفاهة متاعها الزائل ، وتذكرت قول الشاعر :

" لا فرق بين الفقير والغنى

فكلاهما تراب هذا الباب

إن أكثر الناس غنى هم أكثرهم فقرا "

علماء مكة وأعيانها

١- مولانا السيد محمد المغربى

ينتمى مولانا السيد محمد المغربى إلى أسرة السيد ابن الحسن الشاذلى ، يحبه أهل المغرب - فقيرهم وغنيهم - ويبجلونه ويعظمونه تعظيما كثيرا ، تخرج على يديه كثيرون ممن تربوا فى مدرسته الروحية ، مجاور فى مكة منذ عشرين عاما ، على جبينه آثار ولايته ، اجتمعت به كثيرا ، فكان يرحب بى ويلاطفنى ويعطف علىّ ، وكان من كرمه الزائد ، وفضله الوافر ، أن منحنى إجازة حزب البحر ، وحزب البر ، وسائر الأحزاب والأذكار ، وأوراد الشاذلية ، وقد كتب لى الإجازة بخط يده المباركة ودعا لى ، تقبل الله دعاءه .

وبينما كنت جالسا عنده فى المسجد يوما سألنى عن أحوالى ؛ فأخبرته بقصة حياتى باختصار شديد ، فسألنى :

- والآن ماذا تنوى ؟

قلت :

- أريد الذهاب إلى المدينة المنورة خلال أسبوع وأتشرف بزيارة روضة النبى (صلى الله عليه وسلم)

قال :

- وهل ترجع إلى الوطن بعد الزيارة ؟

قلت :

- يا سيدى ، أنا لا أرغب فى العودة من المدينة المنورة ، بل أتمنى القيام فيها ، وأن أعيش مجاورا إلى أن يقبض الله روحى ، لكن حكم الله غالب ، فقد وكلت أمرى لله ، ورضيت بما قسم لى .

كان السيد حسين المفتى المالكى يجلس بجاوره فقال له :

- الشوق إلى زيارة مسجد رسول الله أثار الاضطراب فى قلب هذا الرجل ، فالشوق هو الذى أخرجه من وطنه البعيد ، وهو فى هذه السن المتأخرة ، ثم توجها بالدعاء لى .

وفى يوم من الأيام قال لأحد أهل مكة :

- أنا أقيم هنا بمكة المكرمة منذ عشرين عاما ، لم أشعر بألفة أو أنس تجاه أهل الهند بقدر ما شعرت تجاه هذا الشخص - يقصد العبد الفقير ، ثم مدحنى وأثنى علىّ كثيرا .

٢ - المفتى عبد الملك الحنفى :

من أكابر علماء هذا الزمان ، يحتل مكانة رفيعة فى العلوم الدينية ، وكنت ألتقى به ؛ لأنه من المجاورين فى مكة .

٣ - المفتى عبد الغنى الشافعى :

التقيت به فى " منى " وسألته عن مسألة ، فسألنى :

- هل سبق لك أن جئت قبل هذا الحج ؟

فأجبته بالنفى ، فتعجب وقال لأصدقائه :

- ما أطلق لسان هذا الرجل فى العربية !

فقال الآخر :

- إن هذا أمر عجيب .

٤ - ملا مير داد :

ملا مير داد بنجابى الأصل ، مكى المولد ، ماهر فى فن القراءة ، فريد زمانه ، ووحيد عصره ، يتمتع بحسن الخلق ، وطيب المعاملة ، وهو بحر فى علم الحديث وغيره من العلوم .

٥ - مولوى محب الله تلميذ المولوى عبد العلى :

مولوى محب الله متبحر فى مختلف العلوم الدينية ، ويتصف بالأخلاق الفاضلة ، وهو مجاور فى مكة منذ سنوات .

٦ - السيد عقيل :

كنت قد سمعت فى الهند أن السيد عقيل يدعى المهدوية لنفسه ، وهو عالم جليل صاحب مؤلفات كثيرة ، له أتباع كثر ، وأموال ظاهرة ، فهو يكسب رزقه من التجارة ، وقد اعتقد عوام البدو والأعراب وجهلة الهند أنه صادق فى دعواه ؛ فتجمعوا حوله ، إلا أن الشريف سرور فرق جماعته ، وشتتها خوفا من الفتنة ، ولم يتعرض للسيد عقيل نفسه ، وبيته داخل باب إبراهيم فى الحرم ، لا يخرج منذ سنوات من أبواب الحرم إلا للحج ، وهو يصلى فى المسجد الحرام مساء منفردا ، وقد اعترض الشريف على مسلكه ؛ وأوقفه.

ذات يوم وبينما كنت جالسا عند مقام إبراهيم مساء ، سمعت من يقول إن السيد عقيل يجلس داخل الحطيم (٢١) ، فذهبت إليه ، وسلمت عليه ، مصافحا إياه ، ولم نتبادل سوى كلمات قليلة ؛ إذ حان وقت صلاة المغرب ، وبدأ المؤذن ينادى للصلاة ؛ فرجعت إلى مصلاى .

وذات يوم آخر قال السيد عقيل لأحد أتباعه : ابحث لى فى الحرم عن رجل هندى ، وبين له أوصافى ، وأبلغه سلامى ، وشوقى إليه ؛ عندئذ ذهبت إلى بيته وجلست عنده طويلا ، نتحدث عن أمور عديدة ، فوجدت فيه تواضعا واضحا ، كما لاحظت أنه كثير الترغيب فى المجاهدة على طريقة أهل السلف الصالح ، كان قد كتب تفسيرا للقرآن الكريم ، طالعت جزءً منه ، ولاحظت أنه خلط عباراته مع متن القرآن الكريم بحيث غيرت إعراب النص ، وبدلت معانيه ، وحين ذكرت له ذلك قال :

والإرشاد.

فقلت له :

- سمعت عنك فى بلادنا .

فسألنى :

- ماذا يقول علماء الهند وأرباب الكشف فى مسألة ظهور الإمام المهدى ؟

فسألته دون أن أجيب على سؤاله:

- سمعت أنك ادعيت " المهدوية " من قبل ، ثم تراجعت وادعيت نيابة المهدى ؟

فقال :

- لقد اتهمونى بأننى ادعيت المهدوية ، أنا فقط ادعيت نيابة المهدى .

ثم تحدثنا عن مثل هذه القضايا لمدة طويلة ، ولا أجد من المناسب إثباتها هنا ، إلا أنه من الضرورى إيضاح أن علماء العصر يخالفون أفكاره ويعارضونها ، وخاصة بسبب تفسيره سابق الذكر .

٧ - الشيخ عبد الوهاب :

يعتبر الشيخ عبد الوهاب من أعيان مكة المكرمة ، وقد جلست معه في إحدى الليالي في المطاف ، نتذاكر معا مسألة سعة الرحمة الإلهية ، وحكى لي الشيخ حكايات كثيرة عن نفسه .

٨ - السيد حسين المفتي المالكي :

والسيد حسين المفتي المالكي عالم جليل ، يقوم بتدريس كتب المالكية بجوار باب الزيارة ، وأذكر أنه بينما كنت أجلس بين مولانا محمد المهدي المغربي والسيد حسين المالكي ، سألته عن بعض مسائل المذهب المالكي عدة أسئلة منها :

- منذ متى جرى العمل بنظام هذه المصليات الأربعة ؟
- لماذا لا تنفرد جماعة المالكية لصلاة المغرب ؟
- لماذا تتبع جماعة الحنابلة الجماعات الأخرى في جميع الصلوات عدا صلاة الفجر ؟

فأجاب :

- جرى العمل بنظام هذه المصليات في المسجد الحرام منذ القرن السادس الهجري في عهد أحد الخلفاء العباسيين ، ولم يكن هناك سوى جماعة واحدة في الحرم ، وكان الكل يقتدي بإمام واحد ، وبعد ظهور هذه المصليات وتعدد الجماعات ، كانوا يقدمون جماعة المالكية لصلاة المغرب أيضا ، كما كانوا يقدمونها

لصلاة الظهر والعصر والعشاء ؛ وذلك نظرا لضيق وقت صلاة المغرب عند المالكية ، ونظرا لأن تأخير الصلاة عن أول وقتها يقع إثمه على المصلى ، وهذا فى المذهب المالكى بتحقيق العلماء .

ولما جاء القرن التاسع الهجرى ؛ طلب سلطان ذلك الزمان من جماعة المالكية الاكتفاء بتقديم إقامتهم فى الصلوات الثلاث ، على أن يقدم الأحناف إقامتهم لصلاة المغرب ؛ فأوقف علماء المالكية انفراد جماعتهم بصلاة المغرب ، وبدءوا يصلونها مع جماعة الأحناف ؛ ذلك لأن وقت صلاة المغرب لا يستمر حتى تفرغ جماعة الحنفية والشافعية من الصلاة.

أما أهل المذهب الحنبلى ، فنظرا لقلة عددهم لم يقرر لهم مصلى خاص لصلاة الجماعة عدا وقت الفجر .

وسألته فى المجلس نفسه عن مسألة جواز الصلاة خلف الإمام المخالف ، فقال :

- إنه جائز بلا كراهة عندنا مطلقا ، بسواء راعى الإمام موضع الخلاف ، أو لم يراع ذلك ، لأن المسائل الخلافية مسائل اجتهادية ، والحق فيها بين هذه المذاهب ، أما خطأ المجتهد فهو فى علم الله تعالى ، وهو معذور فيه ، مع أن الخطأ والصواب محتمل فى جميع الظروف والأحوال .

وفى النهاية طلبت من الحاضرين فى هذا المجلس أن يدعوا لى ، فدعوا لى طويلا حتى اطمأن قلبى وارتاح ، والحمد لله على ذلك ، ومن حسن أخلاق العالمين الجليلين أن قالا لى :

- ادع لنا أيضا .

فقلت :

- أين أنا من هذا ؟ أنتم السادة ، أنتم جيران بيت الله الحرام ، ونحن مسافرون ، جئنا نلتمس دعاءكم ..

٩- مولانا محمد مراد السندى (رحمه الله) :

كان (رحمه الله) عالما تقيا ، متبحرا فى العلوم ، قدم من السند إلى الحرمين الشريفين فى أواخر أيامه ، ربطته علاقة مودة وصداقة بحاكم جدة ، فكان الحاكم يعطف عليه ويكرمه ، وقد بنى له منزلا ومسجدا وزاوية ، وتوفى (يرحمه الله) فى جدة بعد بضع سنوات من وصوله إليها ، ويوضح مؤلفه الضخم الذى كتبه فى أربعة مجلدات مدى تبحره فى العلوم ، وتضم هذه المجلدات التى كتبها بيده نكات مختارة من كتب التفسير والحديث وبقية كتب التراث ، خلف وراءه ولدين هما محمد ياسين ومحمد حسين ، وهما خلف صدق لأبيهما فى حسن الخلق وفى الورع والتقوى ، وكانا يشعران نحوى بحب شديد ، وقد توفى الابن الأصغر وهو محمد حسين ، بعد أداء مناسك الحج فى غرة المحرم ، بينما يقيم الأخ الأكبر محمد ياسين فى جدة ، وعنده مكتبة عامرة بالكتب القيمة .

زرت مقابر مشاهير مشايخ الطرق الصوفية ، الذين قطنوا هذه البلاد ، ثم انتقلوا إلى رحمة الله قبل سنوات ، ومن بينهم الشيخ محمد السمان القادرى ، وقبره فى المدينة المنورة ، ومير عبد الغنى ، وقبره فى الطائف ، وهما من أهل الفضل والكمال ، نالا مكانة رفيعة بين الناس .

طرق التدريس فى مكة المكرمة

أما طريقة التدريس فى مكة ، فيقوم فيها الطلاب بالجلوس حول شيخهم ، الذى يفتح كتابه الذى يمسكه بيده ، ويبدأ فى القراءة والشرح ، فإذا ما واجه أحد الطلاب أمرا صعبا أو شبهة ما ؛ استفسر من شيخه ؛ فيجيبه الشيخ ويشرح له ما أبهم عليه ، أما أسلوب قراءة التلميذ على الأستاذ فهو أمر نادر .

وذات يوم شاهدت فى المسجد الحرام شخصا يجلس بالقرب من باب السلام ، ومن حوله جماعة ينصتون إليه ، وهو يحدثهم بلسان عربى فصيح ، وبأسلوب سلس بديع ، وبصوت جميل ، وهم من حوله ينصتون إليه فى صمت وكأن على رءوسهم الطير ، فظننت أنه شيخ يعظ جماعته أو يدعو الله لهم ، ولم يخطر على بالى أبدا أن هذا مجلس علم ؛ لأننى لم أشهد مجلس علم بمثل هذا الورع الشديد والإنصات العجيب ، وحين عرفت أنه المفتى عبد الغنى يدرس تلاميذه ؛ ذهبت إلى حلقته ، وجلست من خلف المفتى ؛ فسمعت حديثه ، فإذا به يدرس باب الصلاة من كتاب الفقه .

أخلاق أهل مكة الطيبة

جميع أهل مكة – العامة والخاصة – يتحلون بالأخلاق الفاضلة ، وبحسن المعاملة ، فكبار القوم هنا والعلماء يعاملون المسافرين والغرباء معاملة طيبة تتصف بالتواضع الجم وحسن الخلق ، وكأنهم لم يسمعوا عن الغرور والكبر ، مع أنهم من العلماء الكبار ومن أهل الفضل والشرف .

وذات يوم وبعد طواف العمرة وصلاة ركعتى الطواف ، وبينما كنت بجوار الحجر الأسود ، لم أذهب بعد إلى السعى بين الصفا والمروة ، إذا بأحد كبار أهل الحرمين الشريفين – سبق لى أن رأيته أكثر من مرة – يأتى إلىَّ ، ويأخذ بيدى ، طالبا منى أن أدعو له ، فقلت :

– يا سيدى ! هل أنا جدير بهذا ؟! أنتم جيران بيت الله ، وقد فضلكم علينا ، أنت الذى تدعو لى .

فقال :

– لا ، بل أنتم أحق منا بالدعاء ، فأنتم ضيوف بيت الله ، وهذا شرف لكم .

تأثرت بكلامه كثيرا حتى انهمرت الدموع من عينى ، وغلبنى البكاء ، لم أدر أى تأثير هذا الذى كان فى كلامه ، جعل الدموع تنهمر من عينى ، وظل هذا الشعور يلازمنى حتى صعدت جبل الصفا ، وأتممت الشوط الأول ، وصعدت على جبل المروة .

بعض عادات أهل مكة

سألت عن الخطوط التى تشاهد فى وجوه أهل مكة ، فعلى خدودهم تشاهد ثلاثة خطوط ، فقيل لى : إنها عادة راجت بينهم منذ زمان ، فكان أهل مكة إذا ولد لهم مولود يبضعون جلد خديه بالموسى ، بعد مضى أربعين يوما على ولادته ، وهذه الخطوط الثلاثة تكون على خديه تحت العين ، فيبقى أثرها على وجهه إلى آخر العمر ، فيميزه عن غيره من مواليد المدن الأخرى ، وقد ذكروا أن أول من ابتدع هذه العادة جاء بمولوده إلى المسجد الحرام ، ووضعه على عتبة باب الكعبة ، بعدها يقومون بالدعاء ، ثم يحمل إلى زمزم فيغسل بمائه ، ومن ثم يحمل إلى بيته .

أما الجنائز فيؤتى بها إلى داخل المطاف ، وتوضع على الأرض بالقرب من باب الكعبة ، ثم تحمل بعد الصلاة عليها إلى المدافن ، وقد سألت أحد العلماء عن هذه المسألة ، ولماذا يعمل الناس خلاف ما أقره الفقهاء ، لأن الفقهاء منعوا ذلك ؟ فقال :

- يؤتى بالجنائز داخل المسجد الحرام ، وأيضا يؤتى بها داخل المسجد النبوى تبركا وإستشفاعا ، وهذه من خصوصيات هذين المسجدين ، وقد اختلفت آراء العلماء فى غيرهما من المساجد .

بعض صفات حجاج بيت الله

جرت العادة أن يأتى مسلمو بلاد الشام ، والروم (تركيا) ، ومصر، والمغرب واليمن ، والعراق ، وكردستان وما حولها من البلاد ، لأداء فريضة الحج كل عام، وجرت هذه العادة فى البلاد المذكورة منذ أن دخلها الإسلام ، فالأغنياء والفقراء منهم يأتون تباعا للحج وزيارة المسجد النبوى ؛ ذلك بأنهم يجزمون بضرورة أداء هذا الفرض ، وأنا أشك فى وجود من لم يحج منهم رغم استطاعته ، وترى قوافل الحجاج منهم تأتى إلى الحج بهمة عالية ، وحماس منقطع النظير ، ومن يأتى منهم إلى مكة دون أن يمر بالمدينة ، يعود إلى وطنه بالضرورة ، بعد أداء الحج عن طريق المدينة ، ليشرف بزيارة المسجد النبوى وروضة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وينفق الحجاج التركمان الذين يأتون عن طريق بلاد الشام والروم أموالا طائلة فى سبيل الله ، ويعطى بعضهم عند عودته كل ما يملك من نقود وبضائع إلى الفقراء ، بل يعطونهم أيضا الفرش والأوانى والملابس ، ولا يبقى لديهم إلا ما يحتاجون إليه من ضروريات تكفيهم فى طريق العودة إلى وطنهم ، فإذا ما عاد هؤلاء الحجاج إلى ديارهم سالمين ، أرسلوا الهدايا إلى من ربطتهم بهم علاقة صداقة أثناء سفرهم فى الحج ، وقد يرسلون تلك الهدايا كل عام .

ولا توجد دولة من دول العالم ، ولا جزيرة من الجزر ، لا يأتى منها من يحج إلى بيت الله ، كثر عددهم أم قلّ ، وشعب التكرور رغم أنهم

فى أقصى الغرب من حدود السودان والبربر ، إلا أنهم يأتون إلى الحج بكثرة كأسراب الجراد ، وهم جميعا فقراء ، بشرتهم سوداء ، وهؤلاء هم الذين يقومون بجمع لحوم الأضاحى والهدى ، ويكشطون الدم الذى تمتلئ به وديان منى ونواحيها ، بعد تقطيعها وفرمها حتى يمكن حملها بسهولة ، والأمر العجيب أنه لا يُرى فيهم جاهل ، فأكثرهم متعلمون يعرفون القراءة والكتابة ، كما أنهم متمسكون وملتزمون بأمور الدين ، ومتقيدون بأركان الإسلام ، وأهل المغرب والتكرور على مذهب الإمام مالك .

أما أثرياء الهند ممن وجب عليهم الحج شرعا ، فمعظمهم مشغول بأمور الحياة ، ولا ينفق من ماله خشية أن ينقص ! وبلغ بهم الأمر حدا جعلهم لا يجدون الفرصة لأداء واجباتهم الدينية ، ومن يصوم منهم رمضان ويؤدى الصلوات الخمس يعتبر فى منتهى التقوى والصلاح ، أما فريضة الحج وفريضة الزكاة ، فلم يسمع بهما ، بينما ورد فى الأحاديث الوعيد الشديد لمن لم يحج رغم أنه يملك الزاد والراحلة، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : "من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى البيت الحرام ، فلم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا " .

والحجاج الذين يأتون من الهند ، معظمهم من الفقراء المساكين ، فهؤلاء لا يمكنهم أن يصبروا على الشوق إلى زيارة الحرمين الشريفين ، وقلما تجد من بينهم من يتصف بالقناعة ، فالصابرون القانعون يكفلهم الله تعالى بفضله ويتم حوائجه ، ويكرمهم العرب فى أرض الحرمين ، ويوقرونهم أينما نزلوا ، وصدق من قال : عز من قنع وذل من طمع .

ومن هؤلاء الفقراء من يخرج من بيته من غلبة الفقر ، وضيق الصدر ، وقلة الصبر ، يطوف بالبلاد ، متخذا من التسول حرفة فى الحج ، ومنهم من يموت من شدة الجوع ، ومعه الذهب والفضة ؛ ولهذا اشتهر أغنياء الهند عند العرب بالبخل والشح ، وعدم الالتزام بأمور الدين ، بينما اشتهر فقراؤها بالتسول والضجر ؛ حتى ضرب بهم المثل ، ويتحمل هؤلاء الناس بسبب فقرهم متاعب جمة فى السفر برا وبحرا ، ومع هذا فهم - عادة - يبالغون فى ذكر المشقات والمتاعب التى واجهتهم أثناء سفرهم ، بعد عودتهم إلى بلادهم ، الأمر الذى قد يؤدى إلى ضعف همم من يستمع إليهم ؛ فيتقاعسون عن أداء فريضة الحج ، وتتبلد مشاعر الشوق إلى الحرمين الشريفين فى قلوبهم .

ويعتقد هؤلاء أن رحلة الحج مصيبة وبلاء ، ووصل بهم الأمر إلى أنه إذا استعد أحدهم للسفر لأداء الفريضة ، جعل أهله وعياله يوم سفره مأتما ، بل عمهم حزن يفوق حزن يوم وفاته ، ويفقدون الأمل والرجاء فى عودته ؛ فيحاولون بقدر الإمكان إقناعه بالعدول عن السفر إلى الحج فى وقت لا يفعلون فيه الشىء نفسه إذا ما كان مسافرا إلى مكان بعيد وبلد ناء طلبا للدنيا ، وسعيا للكسب المادى !!!

السفر إلى المدينة المنورة

يمكننى القول - حسب تجربتى - إن السفر بالبحر مريح جدا ، وهو لا يختلف عن السفر داخل بلدان الهند من حيث الراحة والمتعة ،

وكنت أسمع حكايات مفادها أن الطريق من مكة إلى المدينة مملوءة بالمخاطر الجسيمة ، لكن الحمد لله ، فقد كان سفرى إليها مريحا أيضا ، كانت دقات قلبى تزداد بتأثير الفرح والسرور ، كلما شاهدت الجبال والتلال ، التى تدل على قربنا من روضة سيد الأبرار (عليه الصلاة والسلام) ، ولم أشعر البتة بأى تعب جسدى أو معنوى ، ورغم ما يقال عن سوء طباع الجمالين وغلظتهم ، فالجمال الذى رافقنا من "القنفذة" إلى مكة المكرمة ، والآخر الذى رافقنا من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، كلاهما كانا لنا من الخادمين المطيعين ، يقدمان لنا كافة الخدمات طواعية على طول الطريق ، وأظن أن هذا كله كان بتوفيق من الله ، وببركة صاحب الخلق العظيم محمد (صلى الله عليه وسلم)، فالحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

عقدت العزم على السفر إلى المدينة المنورة ، لزيارة المسجد النبوى وروضة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك فى منتصف شهر صفر، وقبل أن أحزم متاعى بيومين وبينما أنا جالس بعد صلاة العشاء بجوار مصلى المالكية فى ليلة مقمرة ، نشرت فوق الكعبة المشرفة جمالا وجلالا يثير الإعجاب ، ويدغدغ المشاعر ، إذا برجل يجلس بجوارى ؛ كان رجلا يتصف بالزهد ، والعلم ، ويدعى "عليا " وهو بغدادى الموطن ، مجاور فى الحرم منذ سنين ، وقد سبق له أن زار مصر والشام ، تعارفنا ، تحدثت معه، وقلت له :

– إنك رجل ورع تقى ، فادع الله أن يغفر لى وأن يتقبل حجى .

فقال :

– هل تأذن لشخص غير مرغوب فيه لديك بأن يدخل بيتك ؟

قلت :

– بالطبع لا .

فقال :

– هكذا الأمر الآن ، فالله تبارك وتعالى يدعو إلى بيته أولئك الذين رضى عنهم ، ولا يأذن لغيرهم بدخول بيته ... ، إن الحق تبارك وتعالى بسابق علمه خبير بعيوبنا ، ومن يقتنى غلاما معيبا بعد اطلاعه على عيبه ، لا يعاتبه أبدا على ذلك العيب ، ونحن ندعو الله صاحب الفضل والكرم أن يستر عيوبنا ، التى يعلمها حتى قبل أن نولد ، وألا يؤاخذنا بسببها ..

عندئذ اطمأن قلبى وارتاح بعد أن إستمعت إلى كلام هذا الزاهد الورع (يرحمه الله) ، ثم نهضت للطواف ، فجرت هذه الأبيات على لسانى ، وقد غلبنى الشوق وضمنى الذوق :

" رأيتنى ، وعرفتنى بعلمك الأزلى

فاشتريتنى بعد أن رأيتنى

كنت تعلم عيوبى ورغم ذلك اشتريتنى

فلا تردنّ من اشتريت

فقد قبلتنى ، ورغم عيوبى اشتريتنى " .

الآن وقد قربت لحظة الوداع ، وما زلت أطوف حتى بعد منتصف الليل ، لا يطاوعنى قلبى ، ويأبى المضى إلى المنزل .

وبعد أن عزمت على مغادرة الحرم المكى ، متجها إلى الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم ، قمت بطواف الوداع ليلة الخميس الموافق الثامن عشر من صفر بسنة ١٢٠٢ هجرية ، وبدأت أمشى فى طريق جدة ، فإذا بى أشعر بإحساس عجيب يغمر فؤادى ، عندما اختلطت مشاعر حزن فراق بيت الله ، ومشاعر الشوق إلى زيارة مسجد رسول الله ، وزيارة الروضة المباركة ، وكأن الشاعر يعبر عما بداخلى حين قال :

" مضى شهر رمضان وولى وجاء عيده

يا للأسف ، مائة أسف على ذهابه

والشكر ،الشكر مائة مرة على مجىء عيده " .

ولا شك أن الهدف من خلق العلم ، وخلق أبينا آدم ، كان ظهور نور محمد (صلى الله علية وسلم) ، وإن قيمة شرف أى شىء ، إنما يقدر بانتسابه إلى حضرة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، فمكة المكرمة هى مسقط رأسه ، وفيها نشأ ، والمدينة المنورة هى مهجره ومستقره ، زادهما الله شرفا وتعظيما ، وما أجمل ما كتب الشاعر حين نظم بيتا من اللآلئ ، وهو فى بيت الله ، عند وداعه الكعبة المشرفة ، مراعيا فى كلامه حسن الأدب :

" عندما أردت مغادرة مكة ، متجها إلى المدينة

ذهبت لأودع بيت الله ، كعبة الناس والملائكة

فجاءنى صوت قدسى

من جانب الركن والمقام والحجر وزمزم

يهتف بى ، يقول لى : ليتنى كنت معك ".

والشاعر هنا يقول : إنه حين بدأ طواف الوداع ، حتى يغادر مكة فى طريقه إلى المدينة ، صار كأنه يسمع صوتا ، وكأن الركن اليمانى ، وكأن الحجر الأسود ، وكأن مقام إبراهيم ، وكأن الحطيم (أى حجر إبراهيم) ، كأنها جميعا تناديه ، تكلمه ، تقول له : يا ليتنا كنا معك فى رحلتك هذه إلى مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

جدة والطريق إلى المدينة المنورة

وصلت جدة وقت السحر ، وجُدَّة – بضم الجيم وتشديد الدال – بمعنى الساحل ، وسبب تسميتها كذلك وجود الميناء فيها ، وهى فى غرب مكة.

عمّرها سيدنا عثمان (رضى الله عنه) ، وكان ميناء مكة من قبل فى مكان آخر ، وقد تطورت جدة الآن ، وأصبحت مدينة كبيرة وميناءً مشهورا ، يفد عليه التجار من بلاد بعيدة ، حاملين جميع أنواع البضائع والتحف النفيسة ، فتصدر هذه البضائع من جدة إلى البلدان المختلفة ، ويذكر أن إيرادات شريف مكة من هذا الميناء كبيرة جدا ، فضريبة البن اليمنى كلها خالصة لشريف

مكة دون غيره ، وهى تربو على نحو مائتى ألف ، أما ضرائب البضائع الأخرى فنصفها لشريف مكة ، ونصفها يعد وقفا من قبل السلطان العثمانى ، على مصارف مكة والمدينة ، ورواتب موظفيها وعمالها وما إلى ذلك .

وفى خارج مدينة جدة ناحية الشمال يوجد قبر أم البشر حواء رضى الله عنها ؛ لذا سماها العوام " جَدَّة " بفتح الجيم ، بمعنى وادى ، أما مزار السيد " علوى " - رحمه الله - فيقع فى داخل المدينة ، وكان كل من عليه دين لا يستطيع أداءه يأتى إلى هذا المزار ، فيجلس بجواره ، فلا يطالبه الحاكم بسداد الدين ، ولا يطارده صاحب الدين طالبا حقه .

فى يوم الإثنين الموافق ٢٢ صفر غادرنا جدة ، ووصلنا إلى مكان قريب من قبر السيدة " حواء " (رضى الله عنها) ، وذلك من أجل تهيئة القافلة وتنظيم أمورها ، وترتيبها ، ثم غادرنا المكان فى الرابع والعشرين من صفر ، متجهين إلى المدينة المنورة ، فنزلنا فى " رابغ " يوم ٢٨ من صفر ، و" رابغ " قرية صغيرة ، بها سوق متواضعة ، و" الجحفة " التى هى ميقات أهل مصر والشام لا تبعد عنها كثيرا ، وهى الآن خربة ، لا يوجد فيها بيوت ولا مساكن ؛ ذلك لأن أهل مصر والشام صاروا يحرمون من " رابغ " .

وهناك طريقان تصلان " رابغ " بالمدينة المنورة ، طريق قديمة وأخرى جديدة ، وقد ضاقت الطريق القديمة منذ زمان ، وهى تلك التى سلكها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى حجة الوداع ، والطريق

الجديدة تمر بـ"الأبواء" التى فيها قبر السيدة آمنة أم النبى (صلى الله عليه وسلم) على القول الصحيح ، ثم تلتقى بالطريق القديمة عند مسجد " غزالة " وهو بطرف وادى " روحاء "، ولما كان بعض الجمالون من "الصفراء" وبعضهم من "بدر" ؛ لذا اختلف خط سيرهم ، فالجمالون من بدر يمضون بالقوافل من الطريق الجديدة إلى "بدر" ، ومن ثم يأتون إلى "الصفراء" ، بينما الجمالون من "الصفراء" لا يذهبون إلى "بدر" ، وبينهما مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، وكان الجمالون فى قافلتنا من سكان "الصفراء"؛ ولهذا لم يمكنونا من زيارة "بدر " ، كما لم يسمحوا لنا أيضا بزيارة أماكن أخرى مباركة على طول الطريق ؛ ذلك لأن السير على هذه الطريق لا يكون إلا ليلاً، ولا يسمح الجمالون لكائن من كان بإيقاف الجمال .

وسوف أذكر هنا نوعا من الابتلاء الذى هو واقع لا محالة فى السفر فى جزيرة العرب ؛ ذلك لأن مسير القوافل يكون عادة بعد صلاتى الظهر والعصر ، وتتوقف القافلة فى العادة ؛ لأخذ قسط من الراحة قليل فى وقت المغرب ، ثم تسير القافلة طول الليل ، ويكون توقف القافلة للراحة ، طبقا لقرب المنازل على الطريق أو بعدها ، فأحيانا تتوقف قبل الفجر أو بعده ، ولا خيار لأحد فى هذا الأمر إلا للجمالين فقط ؛ لذلك يصعب على الأحناف أداء صلاة العشاء فى وقتها ؛ ومن هنا يصلى بعضهم العشاء فوق راحلته ، وهذا جائز إذا خاف أن تفوته الصلاة ، أما صلاة الجماعة فهى تفوت لا محالة ، ويصليها بعضهم جماعة مع المغرب مقلدين فى ذلك مذهب الإمام الشافعى ، وقد ورد فى

كتاب " در المختار شرح تنوير الأبصار " لعلاء الدين محمد بن على المتوفى سنة ١٠٨٨ هجرية : أن هذا جائز عند الضرورة ، وقد أفتى بجوازه المفتى عبد الملك الحنفى أيضا بالشروط المعتبرة للجمع عند الشافعية .

غادرنا "رابغ" مساء يوم الثامن والعشرين من صفر ، ونزلنا " الصفراء " ساعة السحر فى يوم الأربعاء الموافق أول ربيع الأول ، و"الصفراء" قرية لها سوق فى واد تحيطه الجبال من جميع جوانبه ، وفى الصفراء عينان نضاحتان بالماء العذب ، تروى حدائق النخيل المنتشرة فى المنطقة وكذا الخضراوات التى تزرع بين أشجار الخيل ، وهذه واحة غناء ، تسر الناظرين .

قال المسعودى فى كتابه " تاريخ المدينة " : إن النبى (صلى الله عليه وسلم) مر بطريق "الصفراء" عدة مرات ، كما يوجد بجوار هذه القرية قبر سيدنا عبيدة بن الحارث المطلبى (رضى الله عنه) الذى جرح فى بدر، وفاضت روحه عند هذا المكان ، وهو بصحبة النبى (صلى الله عليه وسلم) وجماعة الصحابة ، وأخطأ أهل "الصفراء" فى قولهم إن صاحب القبر هو أبو ذر الغفارى (رضى الله عنه) فهو مدفون بـ"الربذة" بنواحى نجد ، وهى تبعد عن المدينة مسافة أربعة أيام .

وأقمنا فى "الصفراء" يومين ، وغادرناها فى عصر يوم الجمعة الثالث من ربيع الأول ، مرت قافلتنا بوادى الخيف فى منتصف الليل ، وهو شبيه بوادى الصفراء من حيث سوقه وبيوته وحدائقه وعيون الماء فيه .

كانت الطريق من جدة إلى "الصفراء" مستوية وممهدة ، تبعد عنها الجبال من ناحية اليمين ، بينما البحر يمتد على اليسار ، أما جانبا الطريق من "الصفراء" - وبخاصة فى وادى الخيف - فهما عبارة عن هضاب .

وفى يوم السبت صلينا فى مسجد " غزالة " الذى صلى فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة المغرب ، وهو يقع فى جانب من جوانب وادى "الروحاء" .

المدينة المنورة

فى صباح يوم الإثنين السادس من ربيع الأول ، وصلت القافلة إلى المدينة المنورة ، وبركت الإبل فى المكان المعين لها ، بالقرب من مصلى العيدين لنبى الثقلين محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبعد الانتهاء من صلاة الفجر ، توجه العبد الحقير إلى روضة شفيع الأمم ، ملجأ الدنيا ، وملاذ العالم ، بسيد المرسلين ، وسيد ولد آدم ، بسيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، فدخل العبد الحقير من باب السلام ، وصلى تحية المسجد فى مصلى خير الأنام ، ونهض مشتاقا أمام وجهه المشرق ؛ فأدى السلام تأدبا، ثم فرغ من الزيارة مع مراعاة آدابها وقواعدها ..

ثم غلبنى الشوق ، فجعلنى أترنم بأشعار هى سلسلة من الذهب ، من نظم الشاعر عبد الرحمن الجامى [٢٢] ، وبأشعار أخرى لشعراء آخرين منها:

"انظر إلى نظرة عطف

افتح أمامى أبواب لطف

اسمع تضرعى وتكلم

واسمع أنّاتى وتبسم

حرك شفاهك بشفاعتى

لا تنظر إلى ذنبى بل إلى طاعتى

أنا لم أمض على سنتك

فأنا من عصاة أمتك

تقوّس ظهرى بثقل المعاصى

سأسقط سيدى إن لم تأخذ بيدى

عطفك يا سيدى ، ارحم عوزى

أنقذنى ، امدد إلىّ يدك

فأنا من الضعفاء السائرين على طريقك

ويدى إلى يديك لا تصل

والضعف فى طريقك أفضل

فبه الرأس إلى العرش يصل ."

ومنها أيضا :

" يا شفيع المذنبين جئت ببابك مثقلا بالمعاصى

أنوء بما أحمل من ذنوب

افتح عين الرحمة وانظر إلى مشيبى

فقد إسود وجهى من شدة الخجل

لا ادعى أننى كنت تابعا لسنتك

كنت ضالا لكنى توجهت إلى طريقك

جئتك حاملا دلائل حبى لك:

عجزى ، وفقرى ، وألمى ، وأسفى ، وفقدان وعى

هربت إلى ظل لطفك من مردة الشياطين

ومن الهوى ، والنفس الأمارة ، وجميع الأعداء

بأى وجه أتوجه إليك طالبا عفوك

فلسانى يقدم لك الأعذار

بأسلوب بعيد عن الأدب والاحترام ."

ومنها أيضا :

" يكفينى فضلا أن أضع رأسى على عتبتك طلبا للعفو "

ومنها أيضا:

"يا رسول الله ! لا أقول إننى ضيفك

لكنى فقير جئتك بحاجة إلى فتات مائدتك " .

بعد أن فرغت من السلام على سيد المرسلين مراعيا آداب الزيارة ، توجهت للسلام على الشيخين الكبيرين : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) ، ثم قمت بزيارة فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) ، بعدها رجعت لأسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ..

فوالله الذى لا إله إلا هو ، لو كانت كل شعرة فى جسدى لسانا يلهج بالشكر لله تعالى ، لما أمكنها أن تشكره حق هذه النعمة الكبرى ، أى إتاحة الفرصة لهذا العبد الفقير، الحقير، المذنب ، الهالك للوقوف هنا فى هذا المقام العظيم ، وتذكرت قول الشاعر :

" شكرا لله شكرا ، فقد أنعم علىّ بزيارة الحبيب

بخ بخ على هذه الهمة ."

وتذكرت قول آخر :

" إن شمس " بدخشان " تجعل من الحجر جوهرا

وهل يكون شكر الجوهر للشمس إلا الصمت ! "

لقد اختار الله رب العالمين هذا المكان لحبيبه الكريم ، فجعله منبع كل الأنوار ، ومنشأ كل البركات والفتوحات التى شملت الشرق

والغرب ، فهذا ميدان مهبط الوحى ، ومورد ملائكة الرحمن ، ومسكن سيد الإنس والجان ، وهذه أرض شرفت بلمس أقدام خير الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكان لى شرف زيارة جنة البقيع [٢٣] التى دفن فيها أهل بيت الرسول ، ودفن فيها صحابته الكرام ، وسائر عظماء هذه الأمة رضى الله عنهم أجمعين ، كما كان لى شرف زيارة جبل أحد ، ومقابر شهداء أحد ، وزرت مسجد قباء ، ومساجد ومآثر أخرى معروفة هنا فى المدينة المنورة وضواحيها .

لقد تيسر لى الدخول أكثر من مرة تحت قبةَ الحجرة المنورة ، وبينما أنا أركن رأسى ووجهى إلى جدار الحجرة ، جعلت من لحيتى مكنسة لأرضها التى يهبط عليها الملائكة العليون ، واقتربت من قبره (صلى الله عليه وسلم) قيد ذراع ، ثم دعوت آنذاك أرحم الراحمين رب العزة متوسلا بنبيه الكريم الذى أرسله " رحمة للعالمين " قلت :

" يا الله ! إنى أسألك بتوفيقك لهذا العبد المذنب للدخول فى هذه الروضة المنيرة ألا تحوجنى بعد هذا إلى الوقوف عند باب مخلوق من خلقك ، لقضاء حاجة ، أو طلب شيء ، واجعلنى فى حمايتك ، ووفقنى لذكر الآخرة "

كان ذلك فى غرة رجب ، وقد سبق لى أن دعوت الله بهذا الدعاء نفسه داخل الكعبة المشرفة ، وآمل أن يتقبله الله بفضله وكرمه وبشفاعة رسوله الذى هو رحمة للعالمين .

ووقفت بعد ذلك تحت العمود القريب من قبر سيدة نساء العالم (رضى الله عنها) ، وصليت تحية المسجد ركعتين .. ثم خرجت .

والآن وبعد أن وصلت إلى بلد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خير الأنام ، دفعنى شوق الوقوف على الأخبار ، والآثار ، والمشاهد ، والمزارات إلى مطالعة كتاب " وفاء الوفاء فى أخبار المصطفى " الذى ألفَّه الإمام العلامة "نور الدين على بن عبد الله السمهودى المدنى " رحمة الله عليه المتوفى سنة ٩١٠ هجرية ، فمن هذا الكتاب استفاد الشيخ عبد الحق الدهلوى فى تأليف كتابه " جذب القلوب إلى ديار المحبوب " وبخاصة عندما كتب عن تاريخ المدينة .

كما اشتقت أيضا إلى مطالعة كتاب " عمدة الأخبار " الذى ألفَّه أحمد بن عبد الحميد الهاشمى السندى سنة ١٠٣٥ هجرية ، واشتقت أيضا إلى أن أتصفح كتبا أخرى ؛ حتى أستفيد فى معرفة فضائل الزيارة ، وفضائل المدينة المنورة وخصائصها .

وفى اليوم الثانى لوصولى المدينة المنورة ، ذهبت للقاء شيخ هندى هاجر إلى المدينة المنورة ، واختار المقام فيها منذ مدة طويلة ، وقصصت عليه ما شعرت به من كرم الله علىَّ وتوفيقه لى ، فأنشد هذا البيت :

" أنا أفخر بعينى هاتين

فقد نظرتا إلى وجهك

وأرقص طربا برجلى هاتين .

فقد أوصلتانى إليك " .

فترك هذا الشعر فى نفسى أثرا كبيرا ، وحين رجعت لأسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تذكرت هذا الشعر وأنشدته ؛ فانهمرت الدموع غزيرة من عينى ؛ وغلبنى الشوق إلى تقبيل عتباته المباركة ، وألصقت بها عينى مدة ، وأنا أتذكر قول الشاعر :

" حين كنت أمضى ، وجدت تراب قدميه

فإن لم أضعه على عينى فأين يا ترى أضعه ؟! "

خطبة الجمعة فى المسجد النبوى

غلبنى الشوق والذوق وقت سماع خطبة الجمعة ، وشعرت باللذة والسرور ، فقد صعد الخطيب المنبر ، وبدأ يتوجه إلى الحجرة الشريفة ، يشير إليها كلما جاء ذكر اسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : " أشهد أن هذا محمد رسول الله " ، وأحيانا يتوجه إلى الحجرة الشريفة وهو يقول :" هكذا قال النبى صاحب هذا القبر المعطر " ، وهكذا إذا رقت مشاعر إنسان ما ، تصور عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتخيل صورته المباركة ، وهو يشرف المنبر بالصعود إليه ، بينما المهاجرون والأنصار يجلسون أمامه ، ينصتون إليه ، رءوسهم منخفضة ، يستمعون إلى ما يقول من أحكام ومسائل ، يرغبهم عليه الصلاة والسلام فى طاعة الله عز وجل ، ويبين لهم الحلال والحرام ..

ثم يتخيل هذا الإنسان ، الذى رق قلبه ، وشفت مشاعره ، أنه جالس بين هؤلاء ؛ عندئذ لن يستطيع أن يبين عما فى نفسه من سرور وغبطة ،ولن يستطيع أن يوضح ما هو عليه من حال ، يعجز عن بيانها كل لسان .

ويلقى خطباء الحرمين كل جمعة خطبة جديدة مناسبة للظروف والأحوال ، ومناسبة للمواسم والشهور ، مثل عاشوراء وشهر رمضان ، وأيام الحج ، وإذا حدث حادث مهم أو تعرضت البلاد لخطر ما ، أو مات شخص عظيم ، تناول الخطباء فى خطبهم هذا الأمر ، وهم يعتبرون قراءة الخطبة المكتوبة عيبا ، ويذكرون بيت الله فى كل خطبة ، وهم يظهرون براعتهم فى فن الخطبة ، فلا يشعر المصلون بالملل أثناء سماعهم الخطبة ، بل يتوجهون بقلوبهم إلى الاستماع إلى الخطيب ، بسرور ولذة ، رغم أن معظم الخطباء يطيلون فى الخطبة ؛ وذلك لأنهم يمتلكون : جمال الصوت ، وطلاقة اللسان ، والبلاغة ، وفصاحة البيان .

فضيلة الشيخين

قال ابن سيرين (رحمه الله) : " لو حلفت أن الله الكريم خلق محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، وأبا بكر ، وعمر رضى الله عنهما من طينة واحدة ، ثم أعادهم إليها لأكونن صادقا "، وهذان الشيخان مدفونان بالقرب من النبى (صلى الله عليه وسلم) نظرا لخلافتهما له ، ولا يخفى على من يتبعون الصراط المستقيم ، والطريق القويم ، أنه إذا

كان المسلمون يدفنون موتاهم تبركا في ظل الأولياء والصالحين ، ويدعون الله أن يغفر لهم ببركة هؤلاء الأبرار والمرسلين ، وببركة شفيع الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة والتسليم ؛ فلا بد لمن أشرق قلبه بنور الهدى ، وأضاءت بصيرته بنور التوفيق ، أن يقر ويعترف بفضل أهل بيت النبي الأطهار والصحابة الكرام ، المهاجرين منهم والأنصار ، بما لهم من مساع حميدة وخدمات جليلة ، نقلتها لنا كتب السيرة والحديث ، ونحن نعجب كثيرا من أولئك الذين يطعنون في حق الصحابة ، وينكرون فضل محبتهم ، غافلين أو متغافلين عن أياديهم البيضاء ، ونحن نعجب ماذا لو لم تكن تلك المساعي الحميدة ، والخدمات الجليلة التي قام بها أولئك الصحابة في صدر الإسلام لدعم الدين الحنيف ؟! ماذا لو حرم هؤلاء – نعوذ بالله– شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟!

علينا أن نبكي على ما نحن فيه من أحوال سيئة ، وطاعات غير صحيحة، وعبادات عاطلة ، وأعمال فاسدة ! بأي وجه ، وبأي لسان نطلب النجاة والشفاعة ؟! أدعو الله أن يوفقنا إلى أن ندرك عيوبنا ونعرف سيئاتنا ، وأن يحفظنا من سوء الظن بالسلف الصالح ، بل وبجميع المسلمين : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٤) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

يقـول مـولانا جــلال الـدين الــرومــى [٢٤] فى ديـوانه الشـهـيـر " المثنوى " :

" يا بنى ! هؤلاء الناس غافلون ، فهم يذكرون عيوب الآخرين

إن شاء رب العباد أن يهتك سر أحد رغّبه فى شتم الآخرين

وإن شاء أن يستر عيب أحد حجب عنه عيوب الآخرين

كل من وافق عمله عمل الشيطان ساء ظنه حتى بالأقربين

وكل من رأى عيب نفسه لم يغفل مرة عن إصلاح نفسه "

ويقول خواجه فريد الدين العطار [٢٥]:

" إلى متى تردد قولك بأن عليا المرتضى

حُرم الخلافة ، فظل مطرودا مظلوما

فعلى هو أسد الله وتاج الرءوس

فاعلم يا بنى أن الأسود لا يمكن أن تظلم

إنك تغالى ، أعماك التعصب

فالمرتضى لا يمكن أن يسكت عن الحق

فلا تقس المرتضى بنفسك

فقد كان (رضى الله عنه) غواصا يدرك الحق " .

من عادات أهل المدينة المنورة

من عـادات أهل المدينة المنورة أن تؤتى جنائز أهل المدينة ، أمـام قبره (صلى الله عليه وسلم) ، وتوضع قريبة من الجهة المقابلة لوجهه الشريف ، وبعد طلب الشفاعة للميت والتوسل له ، يصلى عليه داخل المسجد النبوى ، ثم تحمل الجنازة إلى جنة (مقبرة) البقيع مرورا بروضة الجنة ، وذات مرة وبينما كنت جالسا قبالة وجهه (صلى الله عليه وسلم) مصليا عليه ، إذ جيء بجنازة ، فقلت غابطا صاحبها: ليتنى كنت مكانك .

ومن عادات أهل المدينة أيضا أن تأتى الأم بمولودها الجديد إلى الحرم النبوى فى أحد أيام الخميس بعد أربعين يوما من مولده ، فيحمله الحبشى الذى يقوم بالخدمة فى المكان المخصص للنساء إلى داخل المقصورة ، فيقف قبالة وجهه الشريف (صلى الله عليه وسلم) ، ويدعو للطفل بأن يبارك الله فى عمره ، وأن يجعل أعماله صالحة خالصة لوجه الله .

ومن عادات أهل المدينة أيضا أنه إذا نزلت فيهم نازلة ، أو أصابتهم مصيبة ، لجأوا إلى الدعاء بالتوسل ، لدفع مظلمة مثلا أو طلبا لنزول المطر ، فيحضر الأعيان والأكابر قبالة وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويفتح باب الحجرة الشريفة المقابل لجهة القبلة ، ويؤتى بالمصحف العثمانى ، فيطلب من البارى بوسيلة النبى الكريم دفع البلاء ، وهذا المصحف محفوظ فى هذا المكان من عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) على القول الصحيح .

وفى هذه الأيام – وأثناء وجودى فى الحرم النبوى – وصل خطاب من السلطان العثمانى عبد الحميد خان إلى سكان الحرمين الشريفين ، تضمن خبرا يفيد بأن جيوش المسلمين تواجه كفار بنى الأصفر ؛ لهذا وجب على المسلمين أن يدعوا لنصرة الإسلام ، وهزيمة الكفار ، وهكذا حضر كل من شيخ الحرم ، والقاضى ، والمفتى ، مع كبار القوم الآخرين ، واجتمعوا عند المقصورة بعد صلاة فجر يوم الإثنين ، وقرأ المقرئ سورة (الفتح) " إنا فتحنا لك فتحا مبينا "، ثم دعا الحاضرون الله تعالى بالنصر ، وهم يتوجهون إلى الحجرة الشريفة ، وفعلوا الأمر نفسه كل يوم خميس وإثنين ، وفى يوم الجمعة الموافق السادس عشر من ربيع الثانى ، حضروا جميعا بعد صلاة الجمعة قبالة وجهه الشريف ، وجيء بالمصحف العثمانى من خارج الحجرة ، فقُرأت سورة الفتح ، وختم الجامع الصحيح للبخارى ، ودعوا الله سبحانه وتعالى، ودعا الخطيب دعاء بليغا فصيحا جامعا بين التوسل والشفاعة، وقد كنت حاضرا بين الناس ؛ فشاهدت من الأمور العجيبة والأحوال الغريبة ما لم أره فى حياتى ، لكنى لم أتمكن من رؤية المصحف العثمانى ، نظرا لشدة الزحام وكثرة الخلق ، وقد أخبرنى صديق كان قريبا من المصحف أنه رأى المصحف ، وذكر بأنه مكتوب على الجلد بخط كوفى .

أما بنو الأصفر فهم قوم لا يعرف عددهم إلا الله ، ودولتهم تمتد من أقصى بلاد البلغار إلى حدود الروم [٢٦] ، ولا يزال سلطان الروم [٢٧] فى جهاد مستمر ونضال ضد هؤلاء الكفار الذين اعتدوا على المسلمين أولا .

وقد جلست مع "الشيخ على" فى إحدى حدائق المدينة المنورة ، فيها بئر أبى أيوب الأنصارى ، وكنا نتنزه ونتفرج ، و" الشيخ على " من العلماء والمدرسين ، أقام عدة سنوات فى إسلامبول (استنبول) التى يطلق عليها اسم " القسطنطينية " ؛ فسألته عن أحوال سلطان الروم ، وطريقة الحكم ، وسألته عن خصائص القسطنطينية ، وعن أحوال كفار بنى الأصفر ، فأخبرنى بأمور تثير الدهشة والعجب .

وفاة الشريف سرور

انتقل إلى رحمة الله الشريف سرور بمكة المكرمة فى الثامن عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٠٢ هجرية عن عمر يناهز نيف وثلاثين سنة ، وسبق أن أجملت الحديث عن سيرته ، جاءه الأجل الموعود كريح صرصر ، اقتلعت شجرة شبابه ، فلما وصل نعيه إلى المدينة المنورة ، صعد الخطيب المنبر فى يوم الجمعة ، وافتتح خطبته بذكر دوام الله ، وفناء أهل الدنيا ، وزوال سلطانهم ؛ فترك كلامه أثرا على قلوب المصليين ، وقد أقيمت صلاة الغائب بعد الانتهاء من صلاة الجمعة ، وكان الإمام شافعى المذهب ، واقتدى به الجميع .

ويذكر أنه جاء فى الحديث الشريف أنه لما مات النجاشى ملك الحبشة نعاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا لأصحابه : توفى اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم ، فصلوا عليه ، فصلى عليه صلاة الغائب مع الصحابة ، ويذكر أيضا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى صلاة الغائب على معاوية بن معاوية الليثى الذى توفى بالمدينة

المنورة ، بناء على نعى جبزيل عليه السلام بوفاته للنبى (صلى الله عليه وسلم) ، بينما كان النبى والصحابة فى سفرهم إلى تبوك .

وتجوز الصلاة على الغائب فى المذهب الشافعى ، ولا تجوز عند الحنفية، وأجوبتهم عن هذه الاستدلالات مذكورة فى مواضعها فى كتبهم .

ومن تقاليد الحرمين الشريفين : أنه إذا جاء نبأ وفاة أحد الأعيان ، نودى بأن فلانا بن فلان انتقل إلى رحمة الله فى المدينة الفلانية ، فصلوا عليه صلاة الجنازة ، أثابكم الله ، ويؤمهم إمام شافعى المذهب ، ويقتدى به معظم الأحناف أيضا .

المدينة المنورة وعهد الشريف الجديد

زُيِّنت المدينة المنورة وسوقها بأمر من شيخ الحرم الشريف ، واستمرت الزينات والأعلام عدة أيام احتفالا باعتلاء الشريف الجديد العرش .

وأشراف المدينة من السادة الحسينية ، وقد كانت المدينة المنورة تحت إمرتهم من قبل ، إلا أنه ظهر من بعضهم هتك لحرمات الحرم الشريف ، فكانوا يجلسون على كراس ، وضعوها داخل الحرم النبوى ، بجوار المقصورة النبوية ، يشربون القهوة ! وحين عرف سلطان الروم (تركيا) ذلك ؛ أرسل إليهم من أوقفهم عن تلك التجاوزات ، وقلل من

صلاحياتهم ، ومنذ ذلك الوقت صار شيخ الحرم يعين بقرار يصدره السلطان ، كما تم تعيين مئات من العسكر لحراسة القلعة والمدينة المنورة، ولم يبق في الوقت الحاضر من الأسرة الحسينية إلا نفر قليل ، يعيشون على رواتب قررها لهم السلطان ، وعلى دخل بعض البساتين ، وليس لهم من شأن سوى ذكر اسم الشريف بعد ذكر اسم السلطان واسم شريف مكة في خطبة الجمعة ، وهو يذكر بالعبارة الآتية : " اللهم أصلح أمير المدينة الشريف صالح " .

ومن الآثار الطيبة لسلاطين الروم [٢٨] ، أنهم كانوا يجعلون من أنفسهم زعماء لجماعة الخدمة المكلفة بالنظافة داخل مقصورة القبة الخضراء ، وبإنارة قناديلها ، وسجلوا أسماءهم في قائمة الديوان المخصص للخدمة ، وجعلوا لهم راتبا مثلهم مثل أي شخص عادي ، ويقوم نائب السلطان في المدينة بهذه المهمة ، ويدعى الشيخ الحسين العباسي ، وهو ابن عم المفتي الشيخ أبي الفتح الحنفي ، ويحضر هذا الشيخ نائبا عن السلطان داخل الحجرة الشريفة ، فيقوم بكنسها وإضاءة قناديلها أولا ثم يقوم الخدام من بعده باستكمال الأعمال الأخرى الموكلة لهم ، وجرت العادة أنه إذا جلس على العرش سلطان جديد ، بعث بالهدايا والعطايا من الروم [٢٩] إلى نائبه في المدينة المنورة ، ويفخر السلاطين - العثمانيون - بهذه الوثيقة أيما فخر ، أي وثيقة كونهم من العاملين في خدمة النظافة داخل الحجرة المباركة .

عطايا سلاطين المغرب واهتمامهم بفن الحديث

كان من العطايا التى أرسلها سلطان المغرب الشريف عبد الله بن محمد هذا العام إلى الحرمين الشريفين مائة وثلاثون ألف قطعة ذهبية أى ما يساوى مائتى ألف روبية هندية ، وهى خاصة لأهل المدينة دون سواهم ، منها خمسة وخمسون ألف قطعة نصيب السادة والأشراف ، وقد قسمها بينهم رئيس السادة ، فلا يقل نصيب الواحد منهم عن ثمانين إسماعيليا ، وقد أعطى منها للأكابر والأعيان وبعض الشخصيات المتميزة ما بين المائة والألف ، كما وزع مبلغ خمسة وعشرين ألف قطعة على من تبقى من سكان المدينة المنورة : على الأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء ، وعلى الصغار والكبار ، وعلى العبد والحر ، ولم يقل نصيب الواحد منهم عن سبع قطع ذهبية من الإسماعيلى ، ووضعت العشرون ألفا الباقية أمانة فى الحجرة الشريفة ، وهى راتب أربعين شخصا : عشرة منهم ممن يقومون بقراءة "دلائل الخيرات" ، وعشرة من منشدى " قصيدة البردة " ، وعشرة من المصليين على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وعشرة ممن يقومون بتلاوة القرآن الكريم ، ويعطى هؤلاء الأربعون مائة إسماعيلى شهريا .

وسلطان المغرب على دراية بالحديث الشريف ؛ فقد ألف كتابين فى الحديث ، وبعث ببعض نسخ الكتابين إلى الحرمين ، وقرر رواتب لمن يقوم على تدريسهما ، وفعلا يقوم بعض العلماء بتدريس الكتابين ، ومدينة مراكش عاصمة المغرب تقع على مسافة خمسة أشهر بالسفينة .

أطفال المدينة المنورة

يجلس أطفال المدينة المنورة الصغار ممن يحفظون القرآن الكريم فى المسجد النبوى عند المنبر والمحراب ، وذلك بعد صلاة المغرب ، فيسمعّون ما حفظوا بصوت حسن ، وأذكر أنه فى إحدى الليالى بينما كنت مشغولا بتلاوة القرآن الكريم عند أسطوانة أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) ، إذا بطفل كنت قد استمعت إليه من قبل يأتينى ويقول :

– هل أقرأ عليك ؟

فقلت له :

– اقرأ ...

فبدأ القراءة ، فلما رآه زميلاه عندى قدما إلينا ، وجلسا معنا ، فأعطيتهم شيئا وقلت لهم قسموه بينكم ، وكان من بينهم طفل لا يزيد عمره عن ثمانى سنوات ، فسألته :

– ماذا أكلت اليوم ؟

فقال :

– لا أجيب عن هذا السؤال ؛ لأنى أخاف أن يحبط عملى .

فقال من برفقته :

– إنه يقصد معنى الحديث الذى ورد فيه " إنه من تكلم بكلام الدنيا فى المسجد أحبط عمله أربعين سنة " .

فتعجبت ، فهذا الطفل مع صغر سنه مهتم بما لا يهتم به الكبار من آداب أصول الشريعة الإسلامية وفروعها .

مجالس العلم والذكر فى المسجد النبوى الشريف

فى المسجد النبوى الشريف ثلاثة أنواع من المجالس :

الأول : مجالس الوعظ ويعقدها بعض الفضلاء .

الثانى : مجالس الدرس والتدريس ، ويعقدها بعض العلماء ، فيدرسون فيها كتب التفسير والحديث ، وكتب الفقه والعلوم المساعدة .

الثالث : مجالس التدريس على طريقة التذكير ، ويعقدها صنف آخر من العلماء يقرءون فيها كتب الحديث ، وكتب التصوف ، أو كتب عن سيرة بعض المشايخ ، وتكون القراءة بصوت جميل على طريقة الوعظ والتذكير ، بينما يجلس الحاضرون حول العالم ينصتون إليه .

ومعظم من يفد على هذه المجالس من التجار وأصحاب الحرف ، ونظرا لأن العربية لغتهم فهم يفهمون ما يقرأه العالم ، ولا يحتاجون إلى شرح أو تفسير لما يقول ، ولكن إذا ما عرضت عبارة صعبة أو تعارضت الأفكار ، أو اختلف المجتهدون فى مسألة ما ، قام العالم نفسه بتوضيح المسألة ، أو شرح الفكرة ، أو بيان العبارة بأسلوب سلس وسهل يفهمه الحاضرون .

ويلاحظ الزائر إلى المسجد النبوى حشدا كبيرا من الناس منهم من ينصرف إلى الوعظ ، ومنهم من يتقرب إلى الله بتلاوة القرآن

الكريم ، ومنهم من يقرأ دلائل الخيرات والصلوات على خير البريات ، ومنهم من يجلس قبالة وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبتهلا إلى الله متوسلا بسيد المرسلين ، ويظل حال المسجد على هذا الشكل من الفجر إلى وقت الضحى .

وأنا أرى أنه لا يوجد مثل هذا الحشد الكبير فى أى مكان أو مسجد على وجه الأرض ، أما مكة المكرمة فالوضع فيها مختلف ، فقد تجد بعض العلماء يقوم فيها بالتدريس ، والبعض الآخر بالوعظ والتذكير ، ومن حولهم بعض الناس ، لكن ليس على طريقة ما يشاهد فى المسجد النبوى ، اللهم صلى وسلم على صاحبه النبى الأمى عليه أفضل الصلاة والسلام .

علماء المدينة المنورة

١ - الشيخ عثمان الحنفى المصرى :

الشيخ عثمان الحنفى المصرى دمشقى الأصل ، مصرى المولد والمنشأ ، مجاور فى المدينة المنورة منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، وهو عالم لا نظير له، متبحر فى العلوم وفى الفقه ، وهو فريد فى التحقيق بين علماء الحرمين الشريفين ، يقوم بتدريس الجامعين الصحيحين للبخارى ومسلم على ضوء الشموع بعد صلاة الفجر مباشرة خلف الإمام الشافعى المذهب ، ويحضر حلقته جمع كبير من الناس ، كما يقوم أيضا بتدريس شرح الإمام ابن حجر (المتوفى ٩٧٤ هجرية) على

الأربعين حديثا للنووى رحمهما الله ، وهو يدرسه لعدد قليل من الطلبة ، وقد حضرت كثيرا من دروسه ، وهو يتكلم فى العادة بلهجته المصرية ، وفى كلامه بعض السرعة ؛ فكنت لا أفهم كثيرا مما يقول إلا إذا تأملت فيه .

وقد تلقيت منه - تيمنا - إجازة فى رواية الصحاح ، بعد أن قرأت عليه حديثا من كل كتاب ، وقد كتب لى سنة الإجازة بخط يده ، وبينه وبين الإمام البخارى عشرة رجال ، له مؤلفات ، وقد شرع قبل عام تقريبا فى تأليف شرح الأشباه والنظائر ، وحين ذهب إلى مكة للحج التقيت به فى الحرم المكى .

٢ - الشيخ صالح المالكى المغربى :

الشيخ صالح المالكى المغربى ، عالم جليل فصيح اللسان متبحر فى سائر العلوم والفنون وبخاصة فى الفقه والحديث ، ويقوم بتدريس التفسير وصحيح البخارى ، وكتب الفقه الخاصة بالمالكية ، وذلك يوميا بعد صلاة الفجر والظهر ، كما يقوم بعد صلاة العشاء بقراءة الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطى (المتوفى ٩١١ هجرية) على بعض الطلبة ، كان بيننا محبة وألفة ، وكثيرا ما كان يقول لى : وطنى يبعد عن الحرمين مسافة سبعة شهور ، وقد هاجر من المغرب ، واختار مجاورة المدينة منذ أربعة عشر سنة تقريبا .

٣ - الشيخ إلياس الشافعى :

كان الشيخ إلياس الشافعى تلميذا للشيخ أبى الحسن السندى ، وهو يقوم بتدريس بعض الكتب بعد صلاة الفجر ، كما يقرأ بعد صلاة العشاء البخارى وكتابا فى التصوف بأسلوب أقرب إلى الوعظ منه إلى التدريس ، ويستمع إليه كثير من الناس ، وفى هذه الأيام يقرأ الطبقات الكبرى للشيخ عبد الوهاب بن على الأنصارى الشعرانى (متوفى ٩٧٣ هجرية) بعد فراغه من قراءة البخارى ، وكاد أن ينتهى منها ، وكنت أحضر مجلسه هذا لأستمع إلى قراءته للطبقات .

٤ - الشيخ أحمد الحنبلى :

الشيخ أحمد الحنبلى شاب صالح يتصف بالوسامة والبشاشة ، وهو يقيم أصلا فى بلدة من أعمال البصرة ، وهو رجل ذو استعداد طيب ، وقدير على تدريس كتب مذهبه ، يقوم بالتدريس لجماعة من الناس ، يستحسنون فصاحته وبلاغته ، وحسن بيانه ، وكثيرا ما استوقفتنى هذه الصفات الحسنة ؛ فكنت أمر بمجلسه ، وأتوقف عنده أتمتع بسماع درسه .

٥ - الشيخ موسى :

يقوم الشيخ موسى بتدريس كتاب " مشارق الأنوار " لجماعة من الأتراك ، وهو يشرحه لهم باللغة التركية .

٦ - السيد أحمد جمل الله :

السيد أحمد جمل الله من الباعلويين ، وأصلهم من حضرموت ، وهم جميعا شافعيو المذهب ، اختار آباؤهم المدينة المنورة موطنا لهم منذ مدة طويلة ، وقد جمع السيد أحمد بين الكمال والجمال سيرة وصورة ، وهو متبحر فى علوم الدين ، وكان يلقى دروسه بالمسجد النبوى بعد طلوع الشمس عند حجرة سيدة النساء (رضى الله عنها) بجوار المقصورة ، التقيت به فى أواخر أيامى بالمدينة حين قرب وقت العودة ، وقد انجذب فؤادى إليه لما يتحلى به من أخلاق كريمة .

٧ - الشيخ محمد عابد السندى

الشيخ محمد عابد السندى هو ابن الشيخ محمد حياة السندى ، ولد بالمدينة المنورة ، ونال حظا وافرا من العلوم لا سيما علم البديع والبيان والعروض والحساب وعلم الهيئة ، وهو فصيح اللسان ، يحفظ كثيرا من أشعار العرب ، ويقرض الشعر أيضا .

وكان بيننا مودة وصحبة ، وكثيرا ما جلسنا معا ، ينشدنى أشعارا بالعربية ، وأنشده أشعارا بالفارسية ، ثم أترجمها له بالعربية ، وأعجبته ذات يوم رباعية أسمعته إياها ، كما أعجبنى منه بيتين من الشعر جعلتهما وردا لى منذ أن سمعتهما منه ، وجعلت أنشدهما بلحن جميل على طريقة أهل الهند راجيا من الله التوفيق :

إلهى ! نجنى من كل ضيق   بجاه المصطفى مولى الجميع
وهب لى فى مدينته قرارا   ورزقا ثم دفنا فى البقيع

٨ - السيد زين العابدين :

جمع السيد زين العابدين بين شرف النسب وفخر الحسب ، وبين فصاحة اللسان وبلاغة البيان ، وبرع فى العلوم الدينية ، وفى قول الشعر ، وكان صوته جميلا ؛ فيثير الناس إذا ما تلا القرآن الكريم ، وبخاصة عندما يأتى دوره فى إمامة الناس فى المسجد النبوى .

وينتمى السيد زين العابدين إلى أسرة ماجدة ، فجده الأعلى هو السيد محمد البرزنجي الشهير بالشهرستانى ، وهو من أولاد خواجه ابن يوسف الهمدانى ، قدم إلى المدينة المنورة من العراق ، ونال مكانة عالية فى العلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها : " الإشاعة فى أشراط الساعة "، وقد توفى سنة ١١٠٣ هجرية ، ومنذ ذلك الوقت أنعم الله على ذريته بالعلم والفضل ، وخصهم بالرفعة والكرامة ، وكان الشيخ جعفر البرزنجي حفيد الشيخ محمد - سابق الذكر - صاحب مؤلفات كثيرة منها : رسالة المولد ، والرسالة الرجبية ، ورسالة فى أسماء أهل بدر وأحد ، وقد توفى سنة ١١٦٧ هجرية .

والسيد زين العابدين هو حفيد شقيق جعفر البرزنجي ، نظم الرسائل الثلاث لجده جعفر بلغة فصيحة ، وقد أعطانى السيد زين العابدين إجازة رواية البخارى عنه ، بعد أن قرأت عليه الحديث الأول منه ، فقد جاءنى ذات يوم وكتب لى بنفسه إجازة رواية الحديث ، وكذا الرسائل المذكورة من قبل .

٩ - السيد على :

والسيد على هو شقيق السيد جعفر ، نظم هو أيضا أسماء أهل بدر وأحد ، واشتهر نظمه هذا ليس فى جزيرة العرب فحسب ؛ بل فى الشام والروم (تركيا) أيضا ، وقد التقيت به وقرأت عليه منظومته سابقة الذكر ، وحصلت منه على إجازة بذلك .

١٠ - أبو السعود الحنفى الشورانى :

أبو السعود الحنفى الشورانى من العلماء الكرام ، يقوم بتدريس صحيح مسلم بعد صلاة العشاء فى محراب النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وقد حضرت مجلسه ، وسمعت منه بعض أجزاء صحيح مسلم ، وكان على وشك الانتهاء منه .

علماء آخرون بالمدينة المنورة

إن من ذكرت من العلماء قبلا هم أولئك الذين تعرفت عليهم والتقيت بهم ، وجلست إليهم ، وصاحبتهم ، أما من سأذكرهم الآن فلم أتعرف عليهم ، وهم يقومون بالتعليم والتدريس وإفادة الناس والاستفادة ، ومن هؤلاء :

١ - السيد محمد مقبل :

السيد محمد مقبل من السادة الباعلويين ، وقيل إنه كان بسيد السادة فى المدينة المنورة ، وكان يحظى بحب الشريف سرور وتكريمه ،

فكان الشريف إذا ما حضر إلى المدينة المنورة زاره فى بيته ، ولم تكن ترد له شفاعة فى أحد من الناس ، وحين غلب عليه الورع والتقوى ، قدم استقالته من منصب سيد السادة ، واعتزل فى بيته ، وكان ذلك قبل عدة سنين ، وهو لا يأتى إلى الحرم النبوى إلا لماما .

ويقع بيته فى إحدى الجوانب القريبة من سور المدينة ، وأمام بيته بساتين وجداول تمتد حتى مسجد قباء ، ويخيل للناظر أن الوادى الممتد داخل الصحراء مع المساحة الخضراء الواسعة صحن بيته ، ولا يوجد فى المدينة مكان أطيب من هذا المكان للنزهة والفسحة ، وقد التقيت به ، واستفدت كثيرا من كرم خلقه.

٢ - السيد إبراهيم الأمير :

السيد إبراهيم الأمير واحد من أشقاء إمام اليمن ، ترك اليمن من سنين واستوطن المدينة المنورة ، وكان إمام اليمن يرسل إليه بالهدايا والمنح ، وهو عالم جليل من علماء الدين ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، وهو مثال للتواضع والتقوى ، وكان مثل قومه زيدى المذهب ، ثم تحول إلى مذهب أهل السنة والجماعة ؛ وهكذا ناقش علماء اليمن الزيديين ، كما ناقش إمامهم أيضا ؛ وأثبت الكثير من الاعتراضات على مذهبهم .

وقد التقيت به أول مرة فى مأدبة أقامها الشيخ سالم المالكى ، ودعا إليها السيد إبراهيم الأمير ، والسيد أحمد جمل الليل ، وأبا السعود الشورانى ، والعبد الفقير كاتب هذه السطور ونخبة من أهل العلم ، وكان ذلك فى الوقت الذى قرب فيه موعد مغادرتى للمدينة

المنورة ، ثم التقينا بعد ذلك فى الحرم النبوى ؛ فأخذنى إلى بيته ، واستضافنى لمدة طويلة ، وكان يقول إن الزيدية لا يسبون إلا حكام بنى أمية ، وأكثر فروع فقههم موافقة للمذهب الحنفى، وهم يغسلون القدمين فى الوضوء ، ولا يجيزون المسح عليهما ، كما أنهم يعاملون أهل السنة الذين ينزلون فى اليمن معاملة حسنة : فيوقرون علماءهم ، ويجلون مشايخهم ، وهم يقولون بظهور الإمام المهدى فى آخر الزمان ، وأئمة مساجدهم إما من الشافعية وإما من الأحناف ، وقد عبر عن مشاعر الحزن عند الوداع .

٣ - السيد مصطفى الحلبى القادرى :

السيد مصطفى الحلبى القادرى ، عالم جليل من علماء الدين وشيخ كبير من شيوخ الصوفية ، مجاور بالمدينة المنورة منذ سنين ، ربطت بيننا المحبة ، وتغلغلت فى قلبينا ، وحين أبديت له أسفى على مغادرة المدينة المنورة ، المكان الطاهر المبارك، قال :

- لا تحزن ، وحاول أن يكون قلبك مرتبطا بحب النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، فالحقيقة المحمدية تجلت على جميع الكائنات ، سواء من كان قريبا من النبى (صلى الله عليه وسلم) ممن وجه قلبه إليه ، وسواء من كان بعيدا عنه ممن وجه قلبه إليه ؛ فالاعتبار هنا هو للقرب المعنوى ، لا لقرب المسافات أو البعد الظاهرى .

وقد رافقنى السيد مصطفى الحلبى يوم سفرى من المدينة المنورة ، وودعنى بعد أن سار معى مسافة طويلة خارج المدينة .

الحياة الاجتماعية فى المدينة المنورة

أهل المدينة المنورة وإن كانوا غير ميسورى الحال إلا أنهم يتكلفون فى طعامهم وشرابهم ، ولا يظهرون لأحد ضيق ذات اليد ، ولا يشتكون لأحد قلة معيشتهم ، وهذا من أثر دعائه (صلى الله عليه وسلم) لهم بالبركة : فى أموالهم ، وفى مدهم ، وفى صاعهم ، وجميع سكانها يتخلقون بحسن الخلق ، ويتصفون بطلاقة الوجه ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وكيف لا ؟! وهم جيران صاحب الخلق العظيم .

المهاجرون

ويقصد بهم من هاجروا من تركيا ومن إسلامبول (القسطنطينية) وأقصى بلاد الروم إلى المدينة المنورة ، وهؤلاء عددهم قليل ، ويعيشون فى طاعة الله بقلوب راضية ، ويقضون حياتهم فى العبادة ، مسرورين فرحين بما آتاهم الله ، كما هاجر إلى المدينة أيضا كثير من العرب ، ومن أهل السند ، إلا أنك لا تجد من بين المقيمين هنا أحدا من الإيرانيين ، وبعضهم - بلا شك - يأتى للحج ، ويمر من هنا ، ويجتاز المكان دون توقف مع القافلة التى جاء فيها ، ولم يوفق أحدهم فى مجاورة المدينة المنورة .

أما مهاجرو الهند فهم قسمان :

قسم غلبه الشوق إلى الحرمين ؛ فتركوا الأهل والأقارب والبلاد ، ورضوا بالإقامة هنا .

وقسم هجروا وطنهم بسبب ضيق الحال ، فقد ضاقت بهم الأرض ، وضاقت بهم أنفسهم فى وطنهم ؛ نتيجة ما حل بهم من مصائب ، فلجأوا إلى المدينة المنورة ؛ فنجوا من المصائب والبلايا التى كانت تحيط بهم فى الهند ، ومن بين هؤلاء من كان له سعة فهيأ لنفسه سبيل المعيشة ، واحترف حرفة ، أو عمل فى صنعة ، ومن بينهم من لم يكن لديه سعة ، ولا حرفة ، ولا صنعة ، فهؤلاء عاشوا فى المدينة المنورة متوكلين !

والسيد حنيف من مهاجرى الهند من القسم الأول ، وهو من معارفى ، كان والده من السادة الأوزبكية ، وكان رفيقا لقمر الدين خان فى دهلى ، وحين عمت الفوضى دهلى فى زمن عماد الملك ؛ هاجر مع أهله وعياله إلى المدينة المنورة ، فأقام فيها ووجد وظيفة يطلق عليها أهل المدينة اسم " معلوم " يكسب منها راتبا جيدا ، يكفيه ليعيش مطمئن البال ، وهو رجل لا نظير له فى مكارم الأخلاق والشفقة .

كان بين والدى ووالده علاقة طيبة ، ذكرنى بها السيد حنيف ، فكان ذلك سببا فى زيادة المودة بيننا ، والسيد حنيف يحفظ الكثير من الأشعار الفارسية والأردية ، وأنشدنى يوما هذا البيت من الشعر الأردى عن مجاورة المدينة المنورة :

" لم يخرج أحد من الجنة بعد دخولها

فكيف أخرج إذن من روضة من رياضها !

أما السيد محمد حياة الدهلوى الحنبلى القادرى ، فقد عرف فى دهلى بما له من فضل ، وذاعت شهرته هناك كثيرا ، وكان قد ترك دهلى بسبب اضطرابات حكومة الإمبراطورية المغولية ، ثم عاد إليها بعد أن زار الحرمين الشريفين ، والنجف ، وكربلاء ، وبغداد ، لكنه منذ عدة سنين يجاور هنا فى المدينة المنورة .

وكتب السيد محمد حياة الدهلوى رسالة باللغة الفارسية عن فقه المذاهب الأربعة، ثم ترجمها إلى اللغة العربية بطلب من بعض أهل المدينة المنورة : فضائله كثيرة ، وصفاته الحميدة عديدة ، بيننا مودة خاصة ، كان مريدا لأحد مشايخ الطريقة القادرية ، وقد منحه السيد ، والسيد مسافر من أولاد الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله ، وقبره على طريق التنعيم بمكة المكرمة ، وقد رأيت سند الإجازة ، كما رأيت شهادة سلسلة نسبه ، فوجدتها مطابقة لسلسلة نسب سيدى وشيخى محمد غوث القادرى اللاهورى بعد ثلاثة أو أربعة أجيال .

وآخر من نذكرهم من الهند مولانا محمد صديق من " برووده " إحدى مدن الكجرات (بكاف فارسية) ، وهو عالم يتصف بالورع والتقوى ، يقيم بالمدينة المنورة منذ سنوات ، وهو متفرغ للعبادة والدراسة .

مهاجرو طرابلس

أما محمد عليش فهو من سكان طرابلس ، هاجر إلى المدينة المنورة منذ خمس سنوات ، وهو ملازم للمسجد النبوى الشريف ، يقضى معظم وقته فى الصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) وفى الذكر ، ولا يخرج من الحرم إلا لقضاء حاجة ضرورية ، وقد ارتحت إليه كثيرا ، وكنت قد سمعت من قبل الكثير عن تعاويذ المغاربة ورقيتهم ، فأبديت له رغبتى فى دراسة هذا الأمر ، فقال لى : فى الواقع يوجد فى المغرب كثير من أصحاب الرقية والتعاويذ ، وكنت قد التقيت بأحدهم ، وأراد أن يعلمنى هذا الأمر ؛ لكنى لم أهتم بذلك وأعرضت عنه ، لأن غاية هذا العلم كسب المنفعة الدنيوية ، والسيطرة على أهل الدنيا ، وخداعهم .

نصيحة لطلبة علم الحديث

ذات يوم بينما كنت أجلس فى مجلس الشيخ محمد صالح المالكى الذى يدرس فيه " ألفية الإمام الحافظ زين الدين العراقى " وهى فى علوم الحديث ، وكان يشرح باب آداب طالب الحديث ، فذكر أن من أهم هذه الآداب أن تكون نية المتعلم طالب الحديث هى العمل به ، وألا يكون قصده الشهرة والجاه ؛ فيجب عليه أن يعمل بما تعلم من الأحاديث .

وأضاف الشيخ فى شرحه أن بعض علماء السلف الصالح قال لأحد العلماء : إن الله تعالى أمر بإخراج ربع عشر الأموال زكاة لها ،

فيا علماء السوء ! إن زكاتكم أن تعملوا بحديث واحد من أربعين حديثا على الأقل !!

هل إرسال اليدين فى الصلاة من المذهب المالكى ؟

سألت الشيخ محمد صالح المالكى عن إرسال المالكية أيديهم فى الصلاة ، وعن دليلهم على ذلك ؛ فقال : إنه لم يرد حديث واحد فى ذلك ، وروى الإمام مالك فى الموطأ الاعتماد (وضع اليدين) فى الصلاة ، وروى القاسم تلميذ مالك فى كتاب المدونة الإرسال عنه ، واعتماد المالكية على هذه الرواية ، وليس فى الحديث غير الاعتماد، وكنت قد سألت عن هذه المسألة كلا من السيد حسين المفتى بمكة المكرمة ، والشيخ محمد عليش ؛ فأجابا كلاهما بالجواب نفسه .

الوداع !

شاء الله العليم الحكيم أن أودع المدينة المنورة بعد أن أقمت فيها أربعة أشهر وعشرين يوما ، ففى يوم الإثنين الثامن والعشرين من رجب ، أحرمت بالعمرة داخل مصلى النبى (صلى الله عليه وسلم)، ودعوت الله تعالى أن يوفقنى للعودة مرة أخرى إلى المدينة المنورة وإلى المجاورة ، وتوجهت ناحية مكة المكرمة قائلا :

وداعا يا ديار حبيب الله

وقد قال الشاعر :

" الله أعلم ، لولا الضرورة لما اخترت فراق الأحبة "

وفى اليوم التاسع والعشرين من رجب نزلت القافلة مكان يسمى "الفريش" ، وبعد زوال الشمس بدأت القافلة رحلتها ، وفى آخر الليل نزلت وادى " الروحاء" بجوار مسجد " شرف الروحاء " ، ثم غادرنا المكان يوم الأربعاء بعد أن صلينا الظهر والعصر جمعا فى أول الوقت فى مسجد الروحاء ، ثم حط الرحال فى "الصفراء" صباح يوم الخميس غرة شعبان بعد أن اجتزنا وادى الخيف فى الليل ، وفى آخر النهار غادرت القافلة " الصفراء " ؛ لتصل فى صباح يوم الجمعة إلى "بدر" .

بدر

فى « بدر » تشرفنا بزيارة مقابر الشهداء ، وزيارة المساجد الأثرية ، حيث تتلألأ أنوار الفيض الإلهى ، فى هذا الوادى الذى نزلت فيه الملائكة ، حيث حل النصر الإلهى ، وحيث عز الله الدين ، فكان الفتح المبين ، وحيث هلك الكفار مع المشركين ، هنا يمتلئ الفؤاد بالنور ، ويفعم بالسرور ، حين يتطلع إلى هذه الأماكن ، هنا تقشعر الجلود ، عندما يتذكر الإنسان الأحداث الماضية فى تاريخ الإسلام .

وهذا مسجد الجمعة الذى يكتظ بالزوار هذه الأيام ، وهو يقع فى منطقة بدر ويدعى مسجد " الغمامة " ، وقيل إن نزول الملائكة لم يكن هنا بل كان فى طرف الوادى خارج العمران ، وهنا يوجد حائط صغير يحوط على قبور الشهداء ، وبجواره قبة شرفت بحضور سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) يوم الغزوة ، عندها حجر ، ويقال : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اتخذه وسادة ، وهناك فوق جبل صغير بجانب هذه القبة ، يوجد مسجد يقال له : مسجد على المرتضى (رضى الله عنه) .

" بدر" بلدة كبيرة ، فيها سوق ، ويجرى فيها نهر مغطى ، مثل أنهار الخيف والدفراء ، وهو يجرى داخل البلدة وخارجها ، ومنه تسقى البساتين وأشجار النخيل ، وأهل بدر من أهل السنة والجماعة ، بخلاف أهل الخيف والصفراء فهم زيديون مثلهم مثل أهل اليمن ، وقد صلينا الجمعة فى مسجد الغمامة .

الطريق إلى مكة

تحركت القافلة بعد عصر يوم السبت ، وعند المساء ، وبعد أن اجتازت الهضاب الجبلية ، ظهرت أمامنا الصحراء الممتدة ، وكانت الجبال على يسارنا بينما كان البحر على يميننا بمسافة أحد عشر كيلو مترا تقريبا ، وفى صباح يوم الأحد نزلنا فى مكان محاذ لجبل ، وفى يوم الإثنين وصلنا إلى "مستورة " حيث يلتقى طريقا بدر والصفراء ،

وفى يوم الثلاثاء وقت السحر وصلنا إلى "رابغ" ، ووصلنا ميناء جدة صباح يوم الأحد التاسع من شعبان ، وعزمنا على الإقامة فى جدة يومين ، فقضينا يوم الإثنين فى جدة ، وفى المساء تركنا جدة، ووصلنا الحرم الشريف نهار يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان ؛ فأكملنا الطواف والسعى ، وأحللنا من العمرة .

فضل ليلة النصف من شعبان

فى الرابع عشر من شعبان وبعد صلاة العصر ، وضع المنبر فى شمال الحرم الشريف ، حيث اجتمع القاضى مع مفتى المذاهب الأربعة ، وغيرهم من العلماء ، وصعد الخطيب المنبر ، ثم جلس ، وألقى خطبة طويلة ضمنها فضائل ليلة النصف من شعبان ، وحين ذكر الخطيب اسم سلطان الروم (٣٠) ألبس خلعة ، ومرة أخرى حين ذكر اسم شريف مكة ألبس خلعة أخرى ، وبعد الانتهاء من الخطبة وقف الخطيب وجمهور الحاضرين أمام بيت الله الحرام ، وفتح الشيبى باب الكعبة المشرفة ؛ ودعا الجميع رب البيت .

الدعاء لنصرة جيش المسلمين

فى يوم الخميس الخامس عشر من شعبان حضر المفتى عبد الملك الحنفى وآخرون ، ووقفوا عند بئر زمزم بعد صلاة الفجر ، متوجهين إلى

باب الكعبة ، وبعد أن فتح الشيبى باب الكعبة المشرفة ، قرأ كاتب السلطان بصوت عال مرسوما سلطانيا صدر حديثا ، كان المرسوم السلطانى طويلا ، وقد كنت موجودا عند قراءة المرسوم ، وهو باسم : شريف مكة ، وأمير جدة والقضاة ، ومفتى المذاهب الأربعة ، وجاء فى المرسوم السلطانى أن طائفتين من الكفار قد حققوا انتصارا بما لهم من همة ؛ فأقلق هذا الأمر قلوبنا ، ونحن نبذل كل ما نستطيع لنصرة الإسلام ، ودفع الكفرة من ديار الإسلام ، وقد أرسلنا رئيس الوزراء مع الجيوش المسلمة لمواجهة الأعداء ، ونتوجه إلى الله تعالى بالدعاء متوسلين بسيد العالمين (صلى الله عليه وسلم) ، وببيت الله الحرام أن يخذل الكفار ، ويهزمهم ، وأن يكتب النصر لدولة الإسلام ، ولتدعوا جميعا الله عز وجل لنصرة جيوش المسلمين : القضاة والمفتون ، والعلماء ، والصغار ، والكبار ، عند الركن ، وعند زمزم ، وعند مقام إبراهيم ، وجميع الأماكن المستجابة .

وبعد الانتهاء من قراءة المرسوم السلطانى ، رفع الناس أيديهم ، وهم يتضرعون إلى الله بالدعاء لنصرة جيوش المسلمين ، ثم أتوا بصحيح البخارى ، فقسمه المفتى عبد الملك إلى أجزاء ، ووزعه على الحاضرين ، وهكذا اختتم الجميع قراءة البخارى فى بضعة أيام ، وقد اشتركت فى قراءة بعض أجزائه .

الطائف

بعد صلاة عصر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شعبان ، قصدت الطائف فركبت " البغل " ومضيت إلى الطائف سالكا طريق جبل " كراء"

قاصدا زيارة سيدنا عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) ، و"كراء" اسم جبل يرتفع بضعة أميال ، وتنبع منه الأنهار ، ويستغرق وصول المسافر من مكة إلى الطائف راكبا البغل أو الحمار مدة يومين ، ويقال إن طلوع هذا الجبل من قبل كان أمرا صعبا جدا ، فقام أحد التجار المصريين - كان يعمل بالتجارة فى مكة - بتمهيد هذه الطريق وتسويتها للمشاة والركبان من الناس ، وقد وهبه الله هذه الأيام سعة فى المال والجاه ؛ فلم يعد هناك من يدانيه ؛ وقد قام بتمهيد طريق واسعة من سفح الجبل إلى قمته ، كما أقام مدرجات ليسهل سفر المشاة وراكبى الدواب ، وأقام منازل على الطريق فى أماكن متفرقة ، كما أقام أماكن واسعة يستريح فيها المسافرون ، وبخاصة إذا ما هطلت الأمطار ، وقد أنفق التاجر مبالغ طائلة لإكمال هذا العمل الصالح - الذى كاد أن ينتهى - فلم يبق على الانتهاء من تسوية الطريق إلا مسافة قليلة .

وهناك طريق أخرى غير طريق " كراء " وهى طريق تسلكها القوافل وتمضى فيها كتائب الجنود إلى الطائف ، ويصلون عبرها بسهولة خلال أربعة أيام.

وقطعنا ثلاث مراحل حتى وصلنا إلى الطائف فى وقت الضحى ، وشرفنا بزيارة مزار سيدنا عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) ، ومزارات ومشاهد أخرى ، ويعتبر المسجد الذى فيه قبر ابن عباس من المساجد المباركة ؛ لأن خيمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيام حصاره بالطائف كانت فى هذا المكان ، فقد جاء رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) قبل الهجرة مع مولاه زيد بن حارثة إلى الطائف ؛ ليدعو أهلها إلى الإسلام .

والطائف جنة من جنان الدنيا ، هواؤها بارد جدا ؛ لهذا لم نتمكن من قضاء الليل هنا إلا ملتحفين ، وهى مشهورة بفواكهها ، فيها عدة أنهار ، وهم يحصدون الشعير والقمح مرتين فى العام ، وكلما اتجهت من الطائف صوب نجد ؛ وجدت الجو أكثر برودة ، بينما تكثر الفاكهة .

ويقضى أثرياء مكة موسم الصيف فى الطائف ؛ يتمتعون بهوائها الجميل ومناظرها الخلابة وبساتينها الخضراء ، والطائف مدينة كبيرة ، تتباعد بيوتها عن بعضها ، كما تنتشر الأسواق فيها ، ويقال : إن الحصن الذى حاصره النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد غزوة حنين يقع جنوب مزار ابن عباس (رضى الله عنهما) ، وهو الآن مجرد أطلال.

وذهبت يوم السبت إلى ميقات الإحرام ، ومن هناك أهللت بالعمرة ، ثم توجهت إلى المسجد الحرام ؛ فأتممت العمرة والحمد لله .

مكة المكرمة فى رمضان

كانت غرة رمضان يوم الجمعة ، وفى رمضان يزداد زحام الناس داخل المسجد الحرام منذ الليلة الأولى ، فهناك جماعة كبيرة تصلى التراويح ، بينما جموع من الناس غفيرة ذهبت إلى التنعيم ليحرموا من هناك لأداء العمرة ، وقد لاحظت أن معظم الموجودين بالمسجد الحرام

يصلون العشاء مع أول جماعة ، وهى المالكية ، وبعد ذلك يصلون التراويح فى جماعات متفرقة ، ويختم أئمة المذاهب الأربعة القرآن الكريم فى صلاة التراويح ، ويضيء كثير من الناس صحن الحرم الشريف بالقناديل والفوانيس والشموع ، ويطوف بعض الناس بالكعبة بعد كل ترويحة ، ويركعون بعد ذلك ركعتين ، وبعض الشافعية يصلون بعد تراويح آخر الليلة بست عشرة ركعة جماعة .

ومجمل القول أن ما يشاهد هنا عجيب ومثير ، والإنسان يشعر بحلاوة الذكر والتسبيح ، والتلاوة ، والتكبير ، وهذا مما يعجز القلم عن تسطيره ، ويعجز اللسان عن وصفه ، فإذا ما قضيت التراويح انتشر أهل مكة عائدين إلى بيوتهم ، بينما تفتح دكاكين مكة أبوابها إلى وقت السحور ، أما القناديل فتظل مضيئة بشكل مثير تجذب الزبائن إلى حيث المأكولات الجاهزة ، والفواكه المصفوفة ؛ فيعم الزحام على المحلات ، ومن الملاحظ أن الأسواق والمحلات هنا تزدان فى الأعياد والمناسبات ، وتعج بالناس .

مكة المكرمة فى يوم العيد

حضر شريف مكة غالب – وهو شقيق سرور – صلاة العيد ، فجلس فى الساحة المجاورة لدار السعادة ، المقابلة للركن اليمانى ، وذلك بعد أن ألبس الخلع للغلمان الذين يزيد عددهم على خمسمائة غلام ، وازدحمت ساحات المسجد الحرام بالناس ، الذين يرتدون ملابس

مختلفة الألوان والأشكال ، فصارت ساحات الحرم كأنها حدائق مملوءة بمختلف أنواع الأزهار المتفتحة فى فصل الربيع .

ومن عادة أهل مكة أن يحتفلوا بالعيد مدة أربعة أيام ، يلبسون الملابس الجديدة الفاخرة ، ويظهر على وجوههم الفرح والسرور ، وطوال هذه الأيام الأربعة يأتى الفرسان والمشاة من الجند وكذا البدو عند بوابات دار السعادة ، وذلك فى وقت المساء ، فتتسابق الخيول فى الميدان ، ثم يتبارز الفرسان بالرماح ، ويقوم شباب مكة باستئجار الحمير والتسابق فيما بينهم ، ويشترك الشريف نفسه فى مسابقة الخيل ، وينتقل الفرسان إلى " المعلا " ، حيث يدور بينهم السباق هناك أيضا ويصل المتسابقون إلى "المحصب"، و"المعبدية " ، ومن عادات عائلة الشريف فى العيد أن تتكفل العائلة بكسوة الغلمان والوسطاء بكافة أشكال وألوان الخلع ، وإذا منح أحدهم ترقية أو منصبا متميزا ؛ أخروا منح الخلع إلى أيام الحج .

شريف مكة

يتخذ شريف مكة فى الغالب خمسة آلاف فتى من الغلمان والأحباش ، يكون منهم أربعمائة أو خمسمائة من الفرسان والباقى من المشاة ، كما يأخذ من البدو - عند الضرورة - بقدر ما يحتاج ، ولا يوجد قانون لجباية الضرائب من المناطق الخاضعة لسيطرة الشريف ؛ ذلك لأن ما يخضع لسيطرته عبارة عن هضاب ومرتفعات أو أودية

صحراوية ، وقد يوجد فى بقاع منها قليل من الزراعة وأشجار النخيل التى يسكن بجوارها عدد قليل من الناس ، ثروتهم الأساسية الماشية ليس إلا ؛ ولهذا كان قدماء الأشراف يجمعون العشر من مواشى الرعايا وخيولهم ، وعندما ضعفت شوكتهم توقف هذا الأمر ، وحين اعتلى الشريف سرور عرش السلطة ، عاقب المتمردين ، وبذل فى ذلك كل جهد ؛ حتى أطاعوه وصاروا يعطونه ما كانوا يعطون الأشراف من قبل .

ويلاحظ أن واردات شريف مكة هى نصف إتاوات ميناء جدة ، وجميع إتاوات "ينبع" و" القنفذة " ، بالإضافة إلى واردات أيام الحج ، وحصة يبعث بها سلطان الروم (تركيا) إلى الحرمين الشريفين ، ونصيب من الصدقات التى يرسلها ملوك وحكام البلاد الإسلامية ، بالإضافة إلى نصيب من محاصيل بعض الأراضى المزروعة والبساتين فى الطائف وبعض الوديان ، ومن الجدير بالذكر أن أبناء الشريف يرثون هذه الأراضى بعد موته ، فيأخذون منها نصيبهم ، فإذا تولى أحدهم السلطة لم يأخذ من الأراضى نصيبا ، بل يوزعها على أخوته ، وإذا كان الشريف من غيرهم تركت جميع ممتلكات الشريف وأمواله لورثته ، ولا يأخذ الشريف الجديد منها شيئا ، لكن يجوز له أن يشتريها من الورثة ، وفى هذه الأيام حين توفى الشريف سرور وخلفه أخوه غالب ؛ قام الشريف غالب بشراء خمسمائة غلام ، وما يقرب من أربعمائة فرس وغيرها من عبد الله بن سرور ؛ حتى تكون عونا له فى إدارة الحكم .

ومن الغريب أن معظم الأشراف لا يتزوجون ، وإنما يتسرون بالجوارى الحبشيات ؛ لهذا صارت أمهاتهم حبشيات منذ قرون ،

وصارت بشرة أشراف الوقت الحاضر سمراء ، كما أن بنات أشراف بني زيد لا يتزوجن ؛ لأنهن لا يجدن من يناسبهن ؛ وهكذا يعشن دون زواج طوال حياتهن ، ويرسل أبناء أشراف مكة إلى البادية ؛ حيث يربون هناك حتى يترعرعوا ويتعلموا اللغة العربية الفصحى دون لحن ، وحتى يتعلموا ركوب الإبل والخيل والبغال والحمير ، وإذا ما وصلوا سن البلوغ جيء بهم إلى مكة .

عملة الحرمين

يتم البيع والشراء في الحرمين وفي جدة وغيرها بالقروش ، والقرش عملة لا وجود لها اليوم في الخارج ، وكان القرش يساوي في مكة ٣٢ ديوانيا ، وفي المدينة عشرين ديوانيا، والريال هو العملة السائدة من العملات الفضية ، ووزنه يساوى روبيتين هنديتين ونصف الروبية ، وهو في مكة يساوى ثلاثة قروش وثلاثة أرباع القرش أي مائة وعشرون ديوانيا ، وعملة الريال المعدنية هي من فئة : ريال واحد ونصف ريال وربع ريال ، وهناك عملة تستخدم في الحرم أيضا تسمى " قمرى " و"القمرى"، يساوى في مكة سبعة عشر ديوانيا ونصف الديواني ، وفي المدينة يساوى عشرين ديوانيا أي قرش واحد ، وفي المدينة المنورة يتعامل الناس بعملة أخرى فضية وهي بقدر خمسين ديوانيا ولها فئات : النصف والربع وأيضا فئة بقدر خمسة ديواني وأخرى نصف هذه الأخيرة ، وهذه العملات جميعها ضربت باسم سلطان الروم [٣١] ، ولا يتعامل بها إلا في المدينة المنورة .

و"الديوانى" مضروب من الفضة المخلوطة غير النقية ، ويضرب أيضا بفضة مخلوطة لكن بحجم أصغر من الأول ، ويسمون الأول " كبير" والثانى " صغيرة" ، وأربعة من العملة الكبيرة تساوى خمسة من العملة الصغيرة .

أما العملات الذهبية فلها أقسام أيضا : فـ"المشخص" عملة تساوى فى مكة ثمانية قروش ، وفى المدينة ثلاثة عشر قرشا ، بينما " المحبوب" وهى عملة ضربت باسم السلطان نوعان : نوع ضرب فى إسلامبول (أى القسطنطينية) وآخر ضرب فى مصر ، ويساوى الأول خمسة قروش ، بينما الثانى يساوى أربعة قروش ، وللمحبوب بنوعيه فئات ، وهناك عملة ذهبية ثالثة يطلق عليها " الفيدمى" (هكذا فى الأصل) وتساوى نصف ريال .

ويلاحظ أن عملة "المشخص" منقوش عليها صورة مع حروف بالإنجليزية ، وسبب رواج هذه العملة فى البلاد الإسلامية هو زيادة التبادل التجارى مع النصارى والإنجليز ، كما أن سكان الروم [٣٢] يدفعون الجزية للسلطان بهذه العملة (أى المشخص) .

ويساوى الريال المغربى الريال الإنجليزى فى وزنه ، ويقدر الريال الإسماعيلى المغربى المطلى بالذهب ثلاثة قروش ونصف قرش ، وجميع هذه العملات النقدية بفئاتها المختلفة تستخدم فى الوقت الحاضر .

سكان الحرمين الشريفين واللغة العربية الفصحى

فى الوقت الحاضر لم يبق فى الحرمين الشريفين أحد من سكان البلاد الأصليين الذين سكنوا البلاد فى عهد النبوة ، أما أسرة الشيبى صاحب مفتاح الكعبة ، فلا يزال منهم عدد قليل جدا لا يتجاوز عدد الأصابع ، يقيمون فى مكة المكرمة ، أما الأنصار فى المدينة المنورة ، فبيوتهم فى المناخ خارج جدران المدينة المنورة بجوار مصلى العيد ، وقد تعرفت عليهم ، أما سكان الحرمين : فمنهم أبناء من هاجروا وأقاموا فى منطقة الحرمين منذ القديم ، أو منذ عهد متأخر ، ومنهم العرب ومنهم العجم ؛ ولهذا لم يبق هنا أى اعتبار للنسب ، اللهم إلا فى أسرة الشريف وبقية سادة الحرمين .

ويحتل مهاجرو الهند والسند أعلى نسبة فى المهاجرين من غير الدول العربية ؛ وبالتالى يكثر عدد من يتكلم اللغة الأردية ، فى حين يقل عدد من يتكلم اللغة الفارسية ، وأكثر تجار مكة وجدة من طائفة "البهرة" الذين هاجروا من "أحمد آباد" و"بتنه" - بتاء هندية - وهم يعملون بكل أنواع التجارة .

ونتيجة لهذا الاختلاط طرأ على اللغة العربية الفصحى التحريف ، فلم تعد اللغة التى تستخدم بين الناس اليوم تتوافق مع قواعد الصرف والنحو ، ومن الضرورى أن يبعث سيبويه من جديد ، حتى يكتب من جديد قواعد اللغة على حسب ما تعود عليه الناس هنا .

وذات يوم بينما كنت جالسا عند المفتى عبد الملك حضر غلامه بالقهوة ، فتحدث معه المفتى برهة ، وحين سألت المفتى عن صحة الحديث الذى جرى من ناحية قواعد اللغة العربية أجاب :

- إنه غير صحيح ، ولا يتماشى مع قواعد اللغة العربية ، لكن جرى العرف على الحديث بهذه الطريقة .

فقلت له :

- لكن لا ينبغى لكم أن تتحدثوا بمثل هذه اللغة التى لا تتوافق مع قواعد العربية الصحيحة .

فقال مبتسما :

- إذا لم نتحدث مع هؤلاء بمثل طريقتهم - أى بالعامية - فإنهم لن يفهموا ما نقوله لهم ، ولكن إذا كان الحديث متضمنا أبياتا من الشعر أو نصا من كتاب ، فلا بد من الالتزام بقواعد اللغة .

القبائل العربية

من الجدير بالذكر أن أنساب معظم قبائل العرب الذين يعيشون خارج منطقة الحرمين محفوظة ، ولغتهم العربية بعيدة عن الاختلاط ، فهى لغة صحيحة وسليمة .

ومن الملاحظ أن القبائل العربية لا تتوانى عن عمل الخير ، والأعمال الحسنة ، واتباع التقاليد والعادات العربية التى تتمسك بها منذ الأزمنة البعيدة ، فلا تزال القبائل العربية تحتفى بالضيف وتكرمه ، وحكايات الأعراب والبدو الذين يقطنون على الطريق الواصلة من مكة إلى المدينة وإكرامهم للغرباء والمساكين الهنود معروفة ومشهورة ، فهناك

كثيرون لا يستطيعون السفر بالبحر ، ويمضون على طريق الحجاز إلى مكة المكرمة ومنها إلى المدينة المنورة - حيث تعيش القبائل العربية - فيجدون منها كل عون ومساعدة .

من حسن أخلاق هؤلاء العرب أنهم يلتزمون - عن طيب خاطر - بأداء زكاة مواشيهم مهما بلغ نصابها ، وكأنهم يعتقدون أن التقاعس عن أداء الزكاة فيه ضياع أموالهم ، وقل أن يوجد بينهم فاسق أو فاسد ، لكنهم من ناحية أخرى لا يلتزمون بالصلاة والصوم ، ولا يؤدون هذين الفرضين حقهما كما ينبغي .

وعند قرية قريبة من جبل الرحمة ، جميع سكانها من القرشيين ، اكتريت جملا من شاب للذهاب إلى " سرف " لزيارة السيدة ميمونة (رضى الله عنها) ، وسألت الشاب حين فاتته بعض الصلوات عن عدم أدائه إياها ، فقال : إنه لم يكن يصلى الفروض طول حياته .

وحين سألته عما إذا كان يعتقد بفرضية الصلوات الخمس ، رد بالإيجاب ، وقال : إن الله سيغفر لنا ما فاتنا منها.

إلا أن القرى الكبيرة مثل قرية الصفراء وقرية بدر ، ففيها مساجد تعمر بالمصلين ، كما يلتزم معظم أهلها بأداء الصلوات ، ويعلمون أولادهم الفقه .

أما حجاج البدو الذين يأتون إلى مكة المكرمة فهم يفعلون أمورا عجيبة ، تثير الدهشة : إذ يحتشد رجالهم ونساؤهم حول الكعبة ، وعند

الحجر الأسود ، فيتساقط بعضهم على بعض ، ولا يستطيع أحد غيرهم استلام الحجر إذا ما وجد هؤلاء ، كما لا يستطيع أحد الطواف حول البيت فى أمان ، إذا ما كان هؤلاء يطوفون بالبيت ، وقد رأيتهم مرات عديدة وهم يصلون أمام الإمام لا خلفه !! وكنت قد رأيت مثل هذه الأعمال فى المدينة المنورة أيضا .

العودة إلى الوطن

اقترب موعد عودة حجاج الهند إلى وطنهم ، وذلك فى آخر شوّال ، واستعد العائدون ، وأعدوا عدتهم ، أما العبد الفقير بمجرد وصولى إلى المدينة المنورة ، شعرت بالحب يملأ قلبى ، وبالفؤاد ينتشى سرورا بوجوده فى مدينة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وبدأت أنفر من سماع كلمة العودة ، أو الرجوع إلى الوطن ، فأهل هذا الحرم مثل مغناطيس يجذب القلوب : بحسن خلقهم ، ومودتهم ، وصدق مشاعرهم الطيبة ، وهى أمور تنسى الغريب داره ، وتنسى المسافر عياله ، وتذكرت قول الشاعر العربى :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم   يسلو من الأهل والأوطان والحشم

وهذا من باب المدح بما يشبه الذم !

وتردد قلبى أياما وأنا أقيم فى المدينة المنورة ، لم أكن أرغب فى السفر إلى وطنى ثم العودة إلى هنا مرة ثانية ، بعد أن شعرت بحب

الأصدقاء وود الأحباب ، وبعد مشاعر الغبطة والسرور التى انتابتنى بمجاورة سيد العالم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كنت أفكر فى البقاء في الحرمين سنة أخرى ، أحج وأبقى سنة فى المدينة المنورة ، بعدها أعود إلى الوطن .

وقفت أمام وجهه الشريف (صلى الله عليه وسلم) ، وأمام مشهد سيدة النساء (رضى الله عنها) ، وتضرعت إلى الله بالدعاء أن يلهمنى ما فيه الخير ، وجئت إلى مكة المكرمة وأنا متردد فى هذا الأمر ، وانتهى شهر رمضان ولم أستقر على رأى ، وفي شوال قررت البقاء سنة ؛ فودعت رفاق سفرى ؛ واخترت الإقامة فى مكة المكرمة ، قرير العين ، مطمئن البال !

ولكن هذا الاطمئنان لم يستمر طويلا ، فقد انفجرت فجأة بداخلى فكرة العودة إلى الهند ، فاستغفرت الله وحوقلت مرات ومرات ، ونهضت ومشيت إلى الحطيم ومقام إبراهيم ، وغيرها من الأماكن المباركة ، فصليت فيها ما شاء الله واستخرت ، وأخيرا فوضت أمرى إلى أرحم الراحمين ، وأنا أقف تحت "ميزاب " الرحمة ، وعند عتبة باب البيت العتيق ، ودعوت الله العلى الكريم أن يقضى ما فيه خيرى ، وما زلت على هذه الحال ثلاثة أو أربعة أيام ، والوساوس تؤرقنى ، لا تزول عنى ، وأخيرا جهزت نفسى للسفر ، راضيا بما قسم الله لى مرددا قوله تعالى : وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وكان خروجى اليوم فى الثامن والعشرين من شوال .

وانتهيت من طواف الوداع ليلة السبت بعد صلاة المغرب ، ودعوت الله تعالى بالخير والعافية فى الدنيا والآخرة لى ولأقاربى ولأحبابى ، وبالتوفيق للعودة ثانية إلى الحرمين الشريفين ، ودعوت الله أن يتوفانى فى المدينة المنورة ، وابتعدت عن الحرم بينما مشاعر الفراق تلهب فؤادى ، وألم الفراق يحز فى قلبى ، وهكذا بدأت السفر إلى جدة ، وقد وصلت إلى جدة صباح يوم الأحد .

وعرفت أن فى جدة وليا يدعى " حمزة " يحسن فيه كثير من الناس الظن ، لا يختلط بأحد ، وتطرأ عليه حالة من الوجد والجذب أحيانا ، وربما يظل مغلوب الحال لعدة أيام ، أخذنى إليه أحد رفاقى ، فسلمت عليه ، فنهض من مقامه قائلا : مرحبا ، ثم أجلسنى فى مقعده وسألنى عن أحوالى ، فذكرتها له ، وطلبت منه الدعاء لى بالتوفيق للعودة إلى وطنى .

وصليت الجمعة فى جدة فى الخامس من ذى القعدة ، وبعد صلاة العشاء ركبت "سفينة الرسول " التى أقلعت صباح اليوم التالى ، حين كانت الرياح مواتية ، فأخذت طريقها إلى عرض البحر .

الحديدة

فى نهار يوم الأحد الرابع عشر من ذى القعدة ألقت السفينة بمرساها عند ميناء الحديدة - بضم الحاء - ونزلنا من السفينة ، وذهبنا إلى المدينة للتجول فيها والتفرج عليها ، فالحديدة من أجمل مدن اليمن ، وهى مثل ميناء " مخا ": أكثر منازلها من الأكواخ ، تجد فيها

بضائع ومنتجات جميع بلاد العالم ، كما توجد فيها جميع أنواع الفاكهة ، وهى تبعد عن مكة مسافة ١٢٩٦ كيلومترا تقريبا ، وبينها وبين "مخا" مسافة ٣٢٤ كيلو مترا تقريبا ، بينما تبعد صنعاء عاصمة اليمن عن الحديدة مسافة ثمانية أيام .

صنعاء

أقلعت السفينة من الحديدة عصر يوم الثلاثاء ، فى وقت كانت فيه الرياح مواتية ، وألقت بمرساها فى المخا قبل عصر يوم الأربعاء ، فنزلنا إلى المدينة يوم الخميس ؛ حيث أقمنا فى بيت السيد أحمد الزبيدى ، وهو من السادة الباعلويين ، وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع ، وقد حضر الحاكم الصلاة بالإضافة إلى القاضى ، وكبار أفراد الجماعة الزيدية ، وكان الإمام شافعى المذهب ، وكان بعد ذكره للنبى (صلى الله عليه وسلم) يذكر سيدنا عليا (كرم الله وجهه)، ثم السيدة فاطمة (رضى الله عنها) ثم السيدين الحسنين (رضى الله عنهما) ، ويذكر بعد ذلك الخلفاء الراشدين ، ثم الإمام زين العابدين ، ثم زيد بن على رضى الله عنهم ، فالخلفاء التسعة ، ولم أعرف ماذا يعنى بالخلفاء التسعة ، كما لم أجد فرصة للسؤال عن ذلك .

ومن عادات حكام اليمن أنهم يشتركون فى مسابقة الخيل مع العسكر ، وتقام المسابقة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع فى ميدان دار الرئاسة ، وقد ذهبت إليه وشاهدت السباق ، فتبين لى أن القوم

لا يجيدون ركوب الخيل ، إلا أننى رأيت الخيول العربية الأصيلة ، وهى خيول فيها جمال ، كما شاهدت أيضا البغال ، وهى جميلة لم أر مثيلا لها فى الطول .

خطر فى البحر

رجعنا إلى السفينة ليلة السبت ، وأبحرت السفينة بعدها مدة ثلاثة أو أربعة أيام ، حتى وصلت بالقرب من جزيرة سُقطرى ، فى مكان يعد أخطر الأماكن فى البحر ، ففيه تتلاطم الأمواج ، وترتفع هائجة من جميع الجهات ، فما بالنا لو اشتدت الريح ، وهكذا مالت السفينة على جانبها الأيسر ، وبقيت على هذه الحال مدة ثلاثة أيام ؛ مما جعل المسافرين فى خوف وقلق واضطراب ، فلم يستطع أحدهم أداء الصلاة فى طمأنينة وهدوء بال ، كما لم يتمكن أحد من الجلوس مطمئنا ، فقد كانت مياه الأمواج تصل إلى داخل السفينة ، تضربها بشدة .

شاطئ بمباى

الحمد لله رب الشمس والضحى ، الذى بتوفيقه وصلت السفينة إلى بمباى سالمة آمنة ، وذلك فى ضحى يوم الخميس ، يوم عيد الأضحى ، وفور وصولها الميناء نزلنا من السفينة .

ميناء بومباى هو أكبر موانئ الدكن ، وهى الآن تحت سيطرة الإنجليز ، وكان ميناء صغيرا ، فقام النصارى بتوسيعه ، بعدما طغوا فى البحار ، وأغرقوا سفنا كثيرا ، بنوا عليها بروجا، وشقوا حولها ثلاثة خنادق واسعة ، أجروا فيها الماء ؛ لتصبح جزءً من الميناء .

وازداد رونق مدينة بمباى : بكثرة سكانها ، وزيادة ثرواتها ، وما تقدمه الدول من هدايا ، وبما ورد عليها من عتاد الحرب وعدته ، وبما أقيم فيها من حصون وقلاع ، ومبان فريدة ، وحدائق جوز الهند الناضرة ، وهكذا يعجز القلم عن وصفها ، والرسام عن رسمها ، وجميع السفن القادمة من إنجلترا ، تصل أولا إلى بمباى ، ومنها تتوجه إلى مدراس أو كلكتا وغيرهما من الموانئ الهندية .

الصناعات الإنجليزية

تعد طاحونة الهواء من أعجب ما صنع الإنجليز فى بمباى ، وقد صنعوها على شكل برج كبير من الخشب ، يتكون من طابقين بارتفاع يصل إلى ارتفاع فيلين ، والطاحونة فى الدور الأول ، تحركها أربعة مراوح كبيرة ، تدور بفعل الرياح ، فتدير عجلة مدورة ، وتعمل الطاحونة بدوران هذه العجلة ، فتطحن كل يوم مائتى من الحبوب ، وقد صعدت إلى الطابق العلوى ، وأخذت أدقق فى صنع هذه الطاحونة ، وأتدبر أمرها ، وتعجبت ممن فكر فى صنعها.

وحوض ترميم السفن المقام هنا هو أيضا من صنع الإنجليز ، وقد جعلوه داخل البحر ، وأحاطوه بالأسوار ، وبابه جهة البحر ، وقد

أقيم هذا الحوض لترميم السفن الكبيرة ، فإذا ما دعت الحاجة إلى ترميم إحدى السفن ، سحبوها إلى داخل الحوض وقت المد ، ثم يغلقون باب الحوض بالقار حتى لا يدخل الماء ، وبحيلة ما يخرجون الماء الموجود من الحوض حتى يبدو للناظر كأنه جزء من اليابسة ، عندئذ يبدأ خبراء الترميم العمل بعد النزول إلى السفينة عن طريق السلالم الخاصة بالمرفأ ، فيصلحون السفينة ويقومون بترميمها ، فإذا ما انتهوا من عملهم ، فتحوا الباب ، فيمتلئ الحوض بالماء ثانية ، وفى وقت الجزر يقومون بسحب السفينة إلى خارج الحوض .

وقد بلغ هؤلاء الخبراء من المهارة والسرعة درجة تجعلهم ينتهون من إصلاح السفينة وترميمها فى أيام قليلة ، ويخرجونها من الحوض بمهارة فائقة ، وقد شاهدت سفنا كثيرة كالأعلام ، كانت تخضع للإصلاح والترميم فى تلك الأيام .

ويدهش الناظر إلى هذه الطاحونة وهذا الحوض ، وليس من سمع كمن رأى ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هناك منشآت أخرى فى بمباى تستحق الرؤية والمشاهدة لأخذ العبرة والعظة على قدرة الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

وبالقرب من بمباى وعلى بعد أحد عشر كيلومترا تقع قرية " مهائم " وهى قرية اشتهرت بحدائق جوز الهند ، وبها مزار " الشيخ على " أحد الأولياء الصالحين ، فذهبت لزيارته ، والمسافة بين بمباى إلى القرية يمضيها المسافر فى النزهة ومشاهدة الحدائق والبساتين ، وقد تمتعت

حقا وأنا أمضى على الطريق المؤدية إلى هذه القرية ، وسط البساتين الناضرة ؛ لهذا قضيت الليلة حول المزار .

الوصول إلى سورت

تقع بونا على مسافة سفر أربعة أيام من بمباى ، بينما تقع أورنك آباد على مسافة ثمانية أيام من بونا ، وقد كنت فى أشد الشوق لزيارة الأولياء الذين دفنوا فى "أورنك آباد " وفى " برهان بور " ، وكنت قد قررت يوم ركبت السفينة فى جدة وعرفت أنها ستصل بنا إلى بمباى ، أن أذهب من بمباى إلى " أجين " عن طريق "بونا" و"أورنك آباد" و"برهان بور" ، لكننى عرفت بعد وصولى بمباى أن الجو غير مناسب لزيارة مزارات الأولياء فى تلك المناطق ؛ نظرا لهطول الأمطار بشدة ، التى غمرت الطرق بالمياه والأوحال ، ولما كن الشوق إلى لقاء المولوى المحدث "خير الدين السورتى "؛ لذا قررت السفر إلى سورت ، التى تبعد من هنا مسافة ثمانية أيام بالبر ، ومسافة يوم واحد بالبحر إذا كانت الرياح مواتية ، فهى على بعد ٣٨٩ كيلو مترا ، والسواحل الممتدة من بومباى إلى سورت آهلة بالسكان ، فيها حدائق جوز الهند ، وحقول الموز الشاسعة .

وركبت السفينة يوم الإثنين الحادى والعشرين من ذى الحجة ، فأقلعت بنا السفينة صباح يوم الثلاثاء ، ولم تصل إلى سورت إلا بعد ستة أيام ، فلم تكن الرياح تجرى بما نشتهى ، بل كانت تهب على

عكس اتجاه السفينة ، وقد دخلت مدينة سورت صباح يوم الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين من ذى الحجة بعون من الله ورعايته .

الوصول إلى مراد آباد

ودّعت المولوى "خير الدين" يوم الخميس الخامس عشر من محرم سنة ١٢٠٣ هجرية ، وغادرت مدينة سورت ، وقضيت ليلة فى " برباؤ " وهى قرية صغيرة على ساحل " تابتى " ، ونزلت بعد ذلك فى رباط " جوكى " بين "سورت" و"بهروج" ، بناه الإمراطور عالمكير (بكاف فارسية) ، ووصلت إلى " أكلير " يوم السبت ، فزرت مزار السيد " حليم " ، ودخلت " بهروج " بعد عبور نهر "نربدا" ، وذلك فى يوم الأحد ، وبعد يومين - أى فى يوم الأربعاء - غادرتها إلى " بروده " التى وصلتها يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من محرم ، و"بروده" مدينة تقع بالقرب من "أحمد آباد" ، وهى تبعد عنها مسيرة ثمانية أيام .

طريق حجاج دهلى القديم

فى الماضى كان حجاج دهلى يسافرون إلى " أجمير" ومنها إلى " أحمد آباد" عن طريق " اودى بلور " التابعة لمحافظة "رانا" ، وعن طريق " ماروادا " التابعة لمحافظة "رجهائى راتهور "، ومن "أحمد آباد" إلى "برودى" ومنها إلى "سورت" ، لكن هذه الطريق صارت الآن وعرة ،

ومن الصعوبة بمكان أن يمضى فيه الحجاج ، وذلك بسبب ضعف أباطرة الدولة المغولية ، فلم تعد تسلكه إلا القوافل الكبيرة ، ويضطر الحجاج الآن - رغم أنفهم - استخدام طريق " بهوبال " و" أجين " وصولا إلى "برهان بور" و"أورنك آباد " أو السير على طريق " دوحد " و" باريه" وصولا إلى "بروده" ، ويستعينون ببعض الرفقاء ممن لهم علاقة طيبة بأهالى المنطقة ، وهذه الطريق موازية لطريق "أنى موهن " ، التى دخلتها من " أندور " إلى " بهروج " .

وقضيت يوم السبت فى "برودة" ثم غادرتها يوم الأحد الخامس والعشرين من محرم ، واسترحت فى "جارود " ، ثم وصلت إلى "هانول" يوم الإثنين ، وهناك بجوارها قلعة " باده كره " المشهورة على قمة جبل ، بينما تقع "جابانير" عند سفح ذلك الجبل .

فى يوم السبت الثانى من صفر وصلت إلى " باريه " وهى من أعمال "كجرات" ، وسلطان هذه المدينة ذو شوكة مثله مثل آبائه ، وهو مستقل لا يخضع لسلطة أحد ، وعلى الرغم من أن المراهتة يسيطرون على المناطق المحيطة به ، لكنهم لا يمسونه بكلمة واحدة .

الوصول إلى دو حد

وصلت إلى محطة "دوحد" فى الخامس من صفر ، وقد سميت بهذا الاسم "دو حد" أى الحدان لأن المدينة تقع على حدود ولاية "الكجرات"

من الناحية الغربية حيث يوجد سوقها ونصف قلعتها ، بينما الناحية الشرقية حيث يوجد النصف الثانى من القلعة توجد على حدود "مالوه "، وهى مسقط رأس الإمبراطور عالمكير ، ومن الآثار التى تذكر الناس به هنا قلعة ومسجد ، وقد رأيت الخطاب الذى كتبه لابنه أعظم شاه باللغة الفارسية وجاء فيه :

و" دو حد ، مسقط رأسى ؛ ومن هنا فإن لسكانها حق علينا ؛ ومعاملتهم بالحسنى من واجباتنا ".

الوصول إلى بهوبال

نزلت مدينة "جهالوه" يوم الجمعة الموافق الثامن من صفر ، ووصلت "أندور" فى الثالث عشر من صفر ، ثم غادرتها بعد يومين لأصل إلى " بهوبال " فى يوم ٢٢ من صفر ، و" بهوبال " مدينة مشهورة ، وهى خاضعة للأفغانيين ، ولم أر أثرا للحكم الإسلامى ، أو تطبيق أحكام الإسلام إلا فى هذا البلد المبارك منذ خروجى من سورت على الطريق البرية حتى وصولى إلى هذه المدينة ، ذلك لأن جميع البلاد المحيطة بمدينة " بهوبال " خاضعة لحكم المراهتة .

وفى السادس عشر من صفر وصلت إلى " بهيله " ؛ حيث يجرى فيها نهر " نيتوا " الذى يقدسه الهندوس ، ويأتون إليه أفواجا للاستحمام فيه ، وذلك فى شهر " كانك"(٣٣) من كل عام ، ويأتى التجار

أيضا لبيع أعداد كبيرة من الإبل والخيل ، ويحملون معهم أنواعا مختلفة من البضائع ، ويبقى هؤلاء الناس هناك مدة ثلاثة أشهر تقريبا ؛ فتعمر الأسواق وتزدهر التجارة ، وقد حالفنى الحظ ؛ لأننى وصلت إلى المدينة فى هذا الوقت .

وفى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر صفر غادرت " بهيله " متجها إلى مدينة "سرونج " ومنها وصلت إلى "نروكند" ، وأخيرا وصلت يوم السبت الرابع عشر من صفر إلى مدينة " كواليار ".

مدينة كواليار

مدينة كواليار مدينة قديمة ، وهى مدينة مشهورة ، ومباركة بوجود مزارات كثير من المشايخ من أشهرها :

- مزار الشيخ محمد غوث الكواليارى مؤلف الجواهر الخمسة ، وقد بنيت عمارة عالية فوق المزار ، وقد ذكر الشيخ حميد الدين - وهو من أحفاد الشيخ محمد غوث (رحمه الله) ، ومتفرغ تماما للعبادة - أن وفاة الشيخ الكواليارى غوث بى لوث كانت سنة ٩٧٠ هجرية ، ومزار الشيخ يقع خارج المدينة .

- مزار الشيخ كبور مجنوب ، ويقع داخل المدينة بجوار المسجد الجامع ، وقد توفى هذا الشيخ سنة ٩٧٩ هجرية .

وجاء ذكر هذين الشيخين فى كتاب أخبار الأخيار للشيخ المحدث عبد الحق الدهلوى رحمه الله .

ويوجد بالمدينة العالم الشيباني الشيخ خان ، وهو عالم زاهد ، وولى معمر ذو أوصاف حميدة ، ويعيش منعزلا عن الناس ، وقد التقيت به ، وشعرت معه بالارتياح ، وقلما يوجد له مثيل فى الكمال فى زماننا هذا .

العودة إلى مراد آباد

غادرت "كواليار" يوم ١٦ ربيع الأول ، ووصلت إلى "دهلبور" بعد ثلاثة أيام وعبرت نهر "جنبل " ، و"جنبل" مدينة قديمة تقع على ساحل النهر ، ولم يبق منها اليوم غير الأطلال ، وقد خربت المدينة بسبب ظلم الحكام ونوازل الزمان ، وفى ٢١ ربيع الأول غادرت هذا المكان ، ووصلت إلى "متهرا " فى ٢٣ من ربيع الأول ، ووصلت إلى نهر "أنوب" فى شهر فى ٢٨ ربيع الأول ، وفى آخر ربيع الأول وصلت "سنبهل " .

وفى غرة ربيع الثانى سنة ١٢٠٢ هجرية وصلت مدينة "مراد آباد " من حيث خرجت ، وهنا ألقيت عصا الترحال بعد رحلة استغرقت " سنتين وشهرين وأسبوعين " فالله الحمد .

تمت بالخير

الحواشى والتعليقات

(١) هذه الأشعار وغيرها باللغة الفارسية .

(٢) يقصد المؤلف الروضة المباركة فى الحرم النبوى الشريف التى ذكر بأنها الرحمة الكاملة والشفاعة الشاملة .

(٣) وتفصيل ذلك بحساب الجمّل هو : حرف السين يساوى ٦٠ + حرف الفاء ويساوى ٨٠ + الراء ويساوى ٢٠٠ + النون ويساوى ٥٠ + الألف ويساوى ١ + الخاء ويساوى ٦٠٠ + الياء ويساوى ١٠ + الراء ويساوى كما ذكرنا من قبل ٢٠٠ فيكون المجموع الكلى ١٢٠١ : أى : عام ١٢٠١ هجرية .

(٤) أى العام الذى سافر فيه مولانا رفيع الدين للحج وهو عام ١٧٨٩ م

(٥) يقال لها أيضا " ناندير " .

(٦) أى أكثر من ألف ومائة سنة من وقت نشر هذه الترجمة العربية .

(٧) الإمبراطور أكبر هو جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيمورى ، ولد سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م ، وتوفى سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م من أعظم أباطرة المغول ، شملت إمبراطوريته الهند كلها ، وتألفت من الولايات الآتية : كابل ، وقندهار ، والسند ، وملتان ، ولاهور ، وكشمير ، ودهلى ، وآكرا ، وأجمير ، وإله آباد ، وأوده ، وبهار ، والبنغال ، وأوريسه ، وملوه ، والكجرات ، وخانديس ، وبرار ، وأحمد نكر .

(٨) الإمبراطور أورنكزيب (بكاف فارسية) وهو محى الدين محمد أورنكزيب الإمبراطور المغولى ، ولد كما ذكر صاحب الرحلة فى " دو حد " شمال بروده فى الكجرات سنة ١٠٢٨ هـ - ١٦١٩ م ، ويعتبره المؤرخون أعظم إمبراطور مغولى بلغت الدولة فى عهده الذروة التى لم تبلغها قبله أو بعده ، وقد حارب المراهتا الذين ورد ذكرهم فى الرحلة ، وضم إلى ملكه ولاية آسام وأراكان فى بورما .

(٩) الكوس يساوى ٣٠٠٠ ياردة .

(١٠) تكتب بعدة أشكال سقطرة ، وسُقطرى (بضم الأول)، وسوقطرة .

(١١) ورد رسمها فى معجم أطلس العالم الناشر مكتبة لبنان هكذا سوقطرة بالتاء المربوطة ، وجزيرة سوقطرة أو سقطرى تنال اليوم اهتمام اليمن لجذب السياح ، ويتكلم أهلها وبخاصة على المناطق الساحلية اللغتين العربية والأمهرية ، بينما يتكلم سكان الداخل البدو العربية فقط .

(١٢) أى من يشرف على الدقيق والحبوب وغير ذلك من مئونة الطعام .

(١٣) كمران كتبها المؤلف هكذا كامران بألف بعد الكاف .

(١٤) موضوع الختان لا يزال مثار جدل بين العلماء وربما قصد المؤلف هنا المبالغة فى قطع الحشفة .

(١٥) لعل عبارة سقطت سهوا فى هذه الفقرة أو حدث تحريف فى الكتابة ، والصحيح " فى الركعة الثانية خمس تكبيرات " .

(١٦) نظامى كنجوى (بكاف فارسية) (٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م - ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م) من شعراء الفارسية المشهورين ، وينسب إلى مدينته " كنجه " بكاف فارسية ، من أهم مؤلفاته " بنج كنج " أى الكنوز الخمسة ؛ وهى خمس منظومات : مخزن الأسرار ، وخسرو وشيرين ، وليلى ومجنون ، واسكندرنامه ، وحقيقت بيكر.

(١٧) يقصد المؤلف هنا الخليفة العثمانى .

(١٨) يقصد الخليفة العثمانى .

(١٩) السير وزن أقل من الكيلو بقليل .

(٢٠) يقصد أنهم ينتسبون إلى الشريف زيد (١٠١٤ - ١٠٧٧ هـ) الذى ولى إمارة مكة .

(٢١) أى عند حجر إسماعيل ويقال إن الحطيم هو ما بين ركن **الحجر وبئر** زمزم ومقام إبراهيم وحجر إسماعيل .

(٢٢) هو نور الدين عبد الرحمن الجامى شاعر فارسى مشهور توفى سنة ٨٩٨ هجرية ، ومن مؤلفاته هفت رنك ، ويتضمن سبع منظومات قصصية كتبت على نمط المثنوى .

(٢٣) أى مقبرة البقيع ولا يطلق عليها الهنود إلا اسم جنة البقيع .

(٢٤) مولانا جلال الدين الرومى شاعر فارسى غنى عن التعريف ، توفى سنة ٢٧٦هجرية ، وقد نشر المجلس الأعلى للثقافة ترجمة ديوانه المثنوى للدكتور إبراهيم شتا رحمه الله .

(٢٥) فريد الدين العطار من شعراء الفارسية المشهورين ، توفى سنة ٦٢٨ هجرية / ١٢٣٠م من أهم مؤلفاته منطق الطير وتذكرة الأولياء.

(٢٦) أى تركيا .

(٢٧) يقصد الخليفة العثمانى .

(٢٨) يقصد العثمانيين .

(٢٩) يقصد الدولة العثمانية

(٣٠) أى الخليفة العثمانى .

(٣١) الخليفة العثمانى .

(٣٢) يقصد تركيا .

(٣٣) شهر كانك من الشهور التى يؤرخ بها الهندوس ، وهو يبدأ فى منتصف شهر أكتوبر .

المؤلف فى سطور :

مولانا رفيع الدين بن فريد الدين المراد آبادى

حفيد نواب عظمة الله خان الفاروقى حاكم مراد آباد ، ولد فى « مراد آباد » بسنة ١١٣٤ هـ ، وأخذ العلوم على يد العالم الهندى المعروف « شاه ولى الله الدهلوى » كما تتلمذ أيضًا على يد علماء هنود كبار .

ترك مولانا رفيع الدين المراد آبادى مؤلفات كثيرة منها : « سلوى الكئيب بذكر الحبيب » ، وهو فى السيرة النبوية ، و« شرح الأربعين » ، وهو فى الحديث ، و « تذكرة المشايخ » ، و « كتاب الأذكار » ، و « تذكرة الملوك » ... وغيرها . وقد توفى فى الخامس عشر من ذى الحجة سنة ١٢٢٣ هـ ، بعد عودته من الرحلة بعشرين عامًا ، عن عمر يناهز التاسعة والثمانين ، ودفن فى مسقط رأسه « مراد آباد » .

المترجم فى سطور :

أ.د. سمير عبد الحميد إبراهيم

تخرج فى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٧م ، وعمل بها حتى ١٩٨٢م ، ثم انتقل بعد ذلك للعمل بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود فى طوكيو باليابان حتى عام ١٩٨٦م ، ثم انتقل للعمل بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض حتى عام ٢٠٠٢م وقد دعته جامعة دوشيشة اليابانية فى كيوتو للعمل أستاذًا زائرًا عام ٢٠٠٤م / ٢٠٠٥م .

شارك فى العديد من المؤتمرات والندوات الدولية ، وله عدد كبير من المؤلفات والترجمات والبحوث نشرت فى باكستان ومصر واليابان والسعودية ، منها : الإسلام والأديان فى اليابان ، يابانى فى مكة (ترجمة عن اليابانية بالاشتراك) معجم الألفاظ العربية فى الأردية ، اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية فى باكستان ، الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للتـرجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات التـرجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحـضـور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجـمـة الأصـول المعـرفـيـة التى أصـبـحت أقـرب إلى الإطار المرجـعى فى الثـقـافـة الإنسـانيـة المعاصـرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	بازبر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه أياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي   مجموعة من النقاد   ت : محمود علي مكي

١٠٩ – حروب المياه   جون بولوك وعادل درويش   ت : هاشم أحمد محمد

١١٠ – النساء في العالم النامي   حسنة بيجوم   ت : منى قطان

١١١ – المرأة والجريمة   فرانسيس هيدسون   ت : ريهام حسين إبراهيم

١١٢ – الاحتجاج الهادئ   أرلين علوي ماكليود   ت : إكرام يوسف

١١٣ – راية التمرد   سادي پلانت   ت : أحمد حسان

١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع   وول شوينكا   ت : نسيم مجلي

١١٥ – غرفة تخص المرء وحده   فرچينيا وولف   ت : سمية رمضان

١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)   سينثيا نلسون   ت : نهاد أحمد سالم

١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام   ليلى أحمد   ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال

١١٨ – النهضة النسائية في مصر   بث بارون   ت : لميس النقاش

١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق   أميرة الأزهري سنبل   ت : بإشراف/ رؤوف عباس

١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط   ليلى أبو لغد   ت : نخبة من المترجمين

١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية   فاطمة موسى   ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال

١٢٢–نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان   جوزيف فوجت   ت : منيرة كروان

١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية   نينل الكسندر وفنادولينا   ت: أنور محمد إبراهيم

١٢٤ – الفجر الكاذب   جون جراي   ت : أحمد فؤاد بلبع

١٢٥ – التحليل الموسيقي   سيدريك ثورپ ديڤي   ت : سمحه الخولي

١٢٦ – فعل القراءة   ڤولفانج إيسر   ت : عبد الوهاب علوب

١٢٧ – إرهاب   صفاء فتحي   ت : بشير السباعي

١٢٨ – الأدب المقارن   سوزان باسنيت   ت : أميرة حسن نويرة

١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة   ماريا دولورس أسيس جاروته   ت : محمد أبو العطا وآخرون

١٣٠ – الشرق يصعد ثانية   أندريه جوندر فرانك   ت : شوقي جلال

١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)   مجموعة من المؤلفين   ت : لويس بقطر

١٣٢ – ثقافة العولمة   مايك فيذرستون   ت : عبد الوهاب علوب

١٣٣ – الخوف من المرايا   طارق علي   ت : طلعت الشايب

١٣٤ – تشريح حضارة   باري ج. كيمب   ت : أحمد محمود

١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)   ت. س. إليوت   ت : ماهر شفيق فريد

١٣٦ – فلاحو الباشا   كينيث كونو   ت : سحر توفيق

١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية   جوزيف ماري مواريه   ت : كاميليا صبحي

١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف   إيڤلينا تاروني   ت : وجيه سمعان عبد المسيح

١٣٩ – پارسيڤال   ريشارد فاجنر   ت : مصطفى ماهر

١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار   هربرت ميسن   ت : أمل الجبوري

١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية   مجموعة من المؤلفين   ت : نعيم عطية

١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل   أ. م. فورستر   ت : حسن بيومي

١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي   ديريك لايدار   ت : عدلي السمري

١٤٤ – صاحبة اللوكاندة   كارلو جولدوني   ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أورريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى — روجر آلان — ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر — بوالو — ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة — جوزيف كامبل — ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث — وليم شكسبير — ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية — ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى — ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد — أبو بكر تفاوابليوه — ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية — جين ل. ماركس — ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١ — لويس عوض — ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢ — لويس عوض — ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فتجنشتين — جون هيتون وجودى جروفز — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا — جين هوب وبورن فان لون — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس — ريـوس — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد — كروزيو مالابارته — ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ — چان - فرانسوا ليوتار — ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور — ديفيد بابينو — ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة — ستيف جونز — ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ — انجوس جيلاتى — ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج — ناجي هيد — ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى — كولنجوود — ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود — وليم دى بويز — ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية — خابير بيان — ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم — جينس مينيك — ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى — ميشيل بروندينو — ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط — أ. ف. ستون — ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد — شير لايموفا - زنيكين — ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة — نخبة — ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا — جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس — ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج — مؤلف مجهول — ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١) — ليفى برو فنسال — ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى — دبليو. إيوجين كلينباور — ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا — تراث يونانى قديم — ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار — أشرف أسدى — ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار — فيليب بوسان — ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة — جورجين هابرماس — ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة — نخبة — ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة — نور الدين عبد الرحمن بن أحمد — ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد — تد هيوز — ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد
٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا

٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة

٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سيامات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخفافيش وقصص أخرى من افغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - باندیراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شيلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندانى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود

٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكا رايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليوم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النتة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	پام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ – ارض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى دونج	ت : عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ – جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو

٤٨٥ – التوبة (رواية) نذير أحمد الدهلوى ت : سمير عبد الحميد إبراهيم

٤٨٦ – الذاكرة الحضارية يان أسمن ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب

٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية رفيع الدين المراد آبادى ت : سمير عبد الحميد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٠٣٤ / ٢٠٠٣





دوّن المؤلف مشاهداته فى سفره البرى والبحرى من مسقط رأسه إلى أرض الحرمين، مرورًا بحضرموت واليمن، كما دون ملاحظات مهمة، مسهبة أحيانًا، وموجزة أحيانًا أخرى، وحرص على التأريخ والتعريف بالبلدان وبقضايا فقهية وعلمية، كما استشهد فى كتاباته بآيات الذكر الحكيم، وبالحديث النبوى، وبأبيات عديدة من الشعر، ذكر أصحابها أحيانًا، وتغاضى عن ذكر أصحابها أحيانًا أخرى، واعتمد المؤلف - بالإضافة إلى المشاهدات العينية - على ما سمعه من أخبار، أو ما طالعه من رحلات سابقة، أو كتبٍ كتبت فى موضوعات مختلفة، تتعلق بموضوعاته.

لقد وصف الطريق والرفيق، ووصف المدن والقرى، وكتب عن الأمور الاجتماعية التى تضمنت وصفه للبشر، وفئات المجتمع، وطبقاته، كما ذكر العلماء، والأدباء، والمدارس، وحلقات الدرس أينما ذهب.

الغلاف/ وائل أحمد